

روايات الهلال

حكاية بنت اسمها...

مرمر

محمد عفيفي

حكاية بنت اسمها مرمر

بقلم

محمد عفيفي



دار الهلال

- ١ -

ترترة لمعت فى السماء وكل ترترة فى السماء مرمر . بجنب قرص القمر سارية تلمع ، قمر أواخر محرم العائق بسماء أغسطس الدافئة . فوق الحقول الفسيحة المغتسلة فى الضوء الشاحب ، وصوت صفير صراصير الحقل فى ليل الهرم . ولأنها كانت ليلة حارة كهذه أراحت الكوب المثلجة على ركبتها العارية فانبسطت

ـ الله ساقعة وحلوة ! خليها شوية والنبى

هنا على هاتين الشلتتين فى هذه الشرفة ، وأشارت مرمر الى هاتين الشجرتين

ـ حزر الشجرتين دول اسمهم ايه ؟

شجرتا الكازورينا الطويلتان الحالمتان فى الضوء ، أشبه بقوسين حول تلك القمة القريبة للقبر المثلث الكبير

ـ سقعت

فرفعت الكوب عن ركبتها ومسحت رشحها المثلج بيد دافئة

ـ ماتحزر

ـ غلب حمارى

ـ واحدة مرمر والتانية حمادة

ـ عاشت الأسامى

ـ طب تقول مين دى ومين دى ؟

ـ دى مرمر ؟

ـ لأ دى

ـ ليه ؟

ـ شكلها مرمر

ـ حمادة يحب مرمر

ـ ومرمر تحب حمادة

فطبعت قبلة على خدها وأحطت بذراعى كتفيها ، أسعدنى ذاك الكتف البعيد الذى وثب تحت يدى الى أعلا

ـ عارفة طالع فى دماغى ايه ؟

ـ همم ؟

ـ أكتب عنك رواية

ـ عنى أنا ؟

ـ آه ، مانفسكيش فى الخلود ؟

ـ ياحبيبى ، دنا كنت أحبك بشكل '

لأنها لاتعرف كيف سأكتبها ، ولكن الخلود حلو على أى حال

ـ بس على شرط تقول الحق

ـ ولا تزعليش ؟

فضحكت حين فهمت

ـ أصلك مجرم !

منذ عامين بالراحة هذا الكلام ، ومنــذ أسبوعين أخرجت من حقيبتها شيئا أخفته وراء ظهرها ، بعد أن وضعنا صحبة الورد فى الفازة الايطالية على البار

ـ ابتديت تكتب الرواية ؟

ـ تقريبا

ـ طب خد ، آدى قلم جديد عشان اسلوبك يتحسن ، ها !

وهنا فى الشرفة جلسنا نستعرض عنــاصر الرواية ، على صفير الصراصير فى ليل الهرم

ـ وانا بافكر اكتشفت حاجة غريبة قوى

ـ إيه ؟

ـ عمرك شفتى واحد يحب واحدة اربع مرات ؟

ـ جبت الرابعة منين ؟

ـ إحسبيهم

ـ مرة واحنا عيــال صغيرين ، ومرة وانا بنت ولو انك كنت بتكرهنى يا مجرم !

ـ ما هو عشان باحبك

ـ والمرة اللى احنا فيها يبقوا تلاتة

ـ آهه هنا الخلاف

ـ ازاى ؟

ـ عايزه تقولى انك انتى هو انتى ؟

ـ طبعا

ـ أنا شايف انك بقيتى واحدة تانية

ـ تبقى مجنون !

ـ أنا ؟

ـ ها !

فلا شك فى أن تغيرا كبيرا قد حدث لمرمر ، أيسر ما فيه انها لم تكن فيما مضى تقول ها . وتلك النكهة اللاذعة فى شفتيها ، هل كانت موجودة عندما أطلقت على الشجرتين اسمينا ، وعندما كان كتفها البعيد يستجيب لضمتى بوثبة ؟

ـ طب ح تبتديها ازاى ؟
ـ م البداية للأسف
ـ للأسف ليه ؟
ـ موضة قديمة

لكنها شيء لامفر منه فى رواية تحكى سيرة ، كل مؤرخ أمين يجب أن يبدأ حديثه من البداية

ـ يعنى من يوم ما اتولدت ؟
ـ لأ طبعا ، قبل كده بشوية
ـ آه صحيح ، انت عرفتنى قبل انا ما اعرفك !

فى البلكونة المطلة من ناحية على بحر يوسف ومن الناحية الأخرى على سور سراى أبى قتب ، رحت أنظر فى صمت إلى الانتفاخ العجيب الذى طرأ على بطن خالتى نفيسة ثم لم أطق على كتمان السؤال صبرا

ـ خالتى ! انتى عيانة ؟
ـ يه فال الله ولا فالك ! ليه يابنى ؟
ـ أصلى شايفك وارمة !

وأشرت إلى بطنها فضحكت هى وأمى

ـ موش وارمة ياعبيط ، ده عيل !
ـ عيل !
ـ آه
ـ جوه هنا ؟
ـ آه ويارب تيجى بنت وانا اجوزها لك
ـ ح تسميها إيه يانفيسة ؟
ـ أميرة وادلعها مرمر

لكننى كنت أفكر فى مسألة أخرى

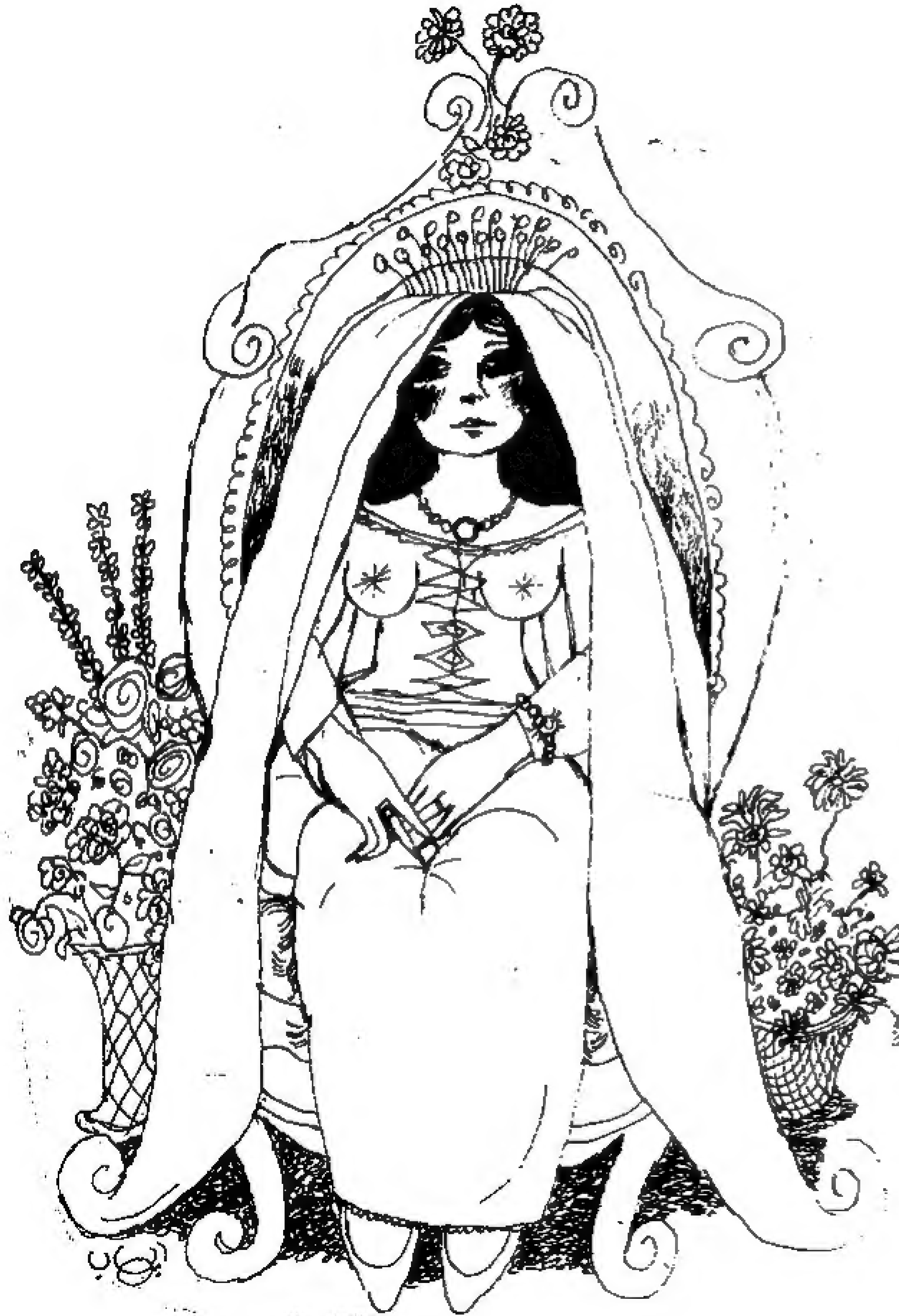
ـ يعنى انا كمان كنت فى بطنك ياماما ؟
ـ طبعا
ـ طب خرجت ازاى ؟
ـ زى كل العيال ما بتخرج
ـ بتخرج ازاى ؟
ـ آهى بتخرج
ـ طب ومين حطنى فى بطنك ؟
ـ ربنا

فكان هذا أول كسب أفدته بسبب مرمر . لم أكن أعرف أن الله هو الذى يضع الأطفال فى بطون النساء ، كنت أظنه فى علاقته بالأطفال يكتفى بأخذ الشقى منهم لكى يريح منه أمه الغاضبة . وفى ذات يوم قرب الفجر صرخت خالتى نفيسة وقد جاءها المخاض فأرسلوا يبحثون عن الداية فى البر الآخر من بحر يوسف . أردت حين حضرت أن أدخل للفرجة ولكنهم قالوا عيب ، فوقفت وراء الباب المقفل أرتعد من الخوف . خالتى الكبيرة العاقلة تصرخ كالعيال ، أليس هذا شيء مفزع ؟ فلابد أنهم يفتحون بطنها ليخرجوا طفلها ، اللهم إلا إذا كانت الأطفال تخرج مثلما تخرج فضلات الطعام . ثم عواء الكائن الغريب الذى خرج إلى الحياة بهذه الطريقة أو تلك

ـ جابت بنت ياحمادة ! بنت زى القمر

فسرنى أنتى ضمنت عروسة ، ولكن شيئا فى الخبر أدهشنى

ـ هى كلمتكو يا ماما ؟
ـ هى العيال الصغيرة تتكلم يا حمادة ؟



ــ إمال عرفتو منين انها بنت ؟!

ــ ها ! أما انت بقى

ــ وعلى فكرة كان دمك تقيل بشكل !

ــ لا ياشيخ ، بس كت غاير منى

كتلة العجين التائهة فى اللفائف ، لا هم لها إلا أن تنهش فى ثدى خالتى وتنهش . وذات يوم خلعوا عنها اللفة لينظفوها ، رأيت ساقا رفيعة متشنجة ترفص الهواء مثل ساق ضفدعة . ثم خلعوا الكافولة الملوثة وإحساس بالقذارة ملأ نفسى ، ودهشة بالغـة من النقص الرهيب أمامى . وبسؤال أمى عن تفسير ذلك النقص قالت أن تلك طبيعة البنات ، وأن الله الذى يضع الأطفال فى البطون هو الذى يقسم أرزاقهم كما يشاء

ــ أنا برضه مرة سألت ماما عليك

ــ وقالت لك إيه ؟

ــ زى امك ما قالت لك ، ها !

الطفلة الحلوة التى انبثقت من كتلة العجين بالوجه السـكروى المتورد والعيون السود ، ذات يوم نطت على البلاط حافية وفى يدها برطمان عسل

ــ عسل ! عسل !

ودست إصبعها فى البرطمان ثم أخرجته فلعقته . ومال البرطمان فى يدها وسال منه على البـلاط شريط عسل ، بللت إصبعها من العسل المسكوب ولعقته

ــ يابت زروطتى الدنيا ! إمشى يا مضروبة هاتى طبق !

فتركت العسل وأقبلت نحوى تنط وتصفق

ــ عسل ! عسل !

ومالت إلى الأمام ومدت بوزها نحوى ، الوجه الكروى المتورد والعيون السود

وطبعت على شفتى قبلة رنانة لزجة كلها عسل . مثل كل قبلات مرمر فى ذلك العهد ، إما عسل أو طحينة أو رائحة القرنفل الذى تضعه خالتى فى مربى البلح . من السبانخة الكبيرة المعلقة فى سقف حجرة الكرار ، بجانب الصحارة الكبيرة الصفراء

— ماكانتش صفرة ، كانت بنى

— والله صفرة

— والله بنى

— وحياتك انتى صفرة

— بنى يعنى بنى !

— بصرف النظر عن لونها كانت مفيدة جدا

— ها !

لأننا كنا نختبىء وراءها لنتبادل القبل ، بل واختبأنا مرة فى جوفها ، بعد أن بدأت أمى وخالتى فى زجرنا عن تلك القبل . وأظن أن أمى كانت جالسة تخرط ملوخية عندما أقبلت عليها مستفسرا

— ماما ! إنتو ليه موش عايزينا نبوس بعض ؟

— عشان عيب !

— ليه ؟

— حرام

— ليه ؟

— ربنا قال كده

— ليه ؟

— آهه كده وخلاص بلاش دوشة !

وراء تلك الصحارة أو وراء شيش البلكونة المطلة على بحر يوسف وسور سراى أبى قتب

— تيجى نستخبى تحت السرير ؟

— يالله !

وتسلل الغبار إلى أنفى فعطست ، أرشدت العسطة أبا مرمر إلينا فكانت علقة

— كفاية بوس ياولاد الكلب باسكو حنش !

وكانت أمى جالسة تقور كوسة عندما قصدنا اليها نستفسر

— لأ ماكانتش بتقور كوسة ، كانت بتقمع بامية !

— وشرفك كوسة

— وشرفك انت بامية

— كوسة

— بامية

— مرمر ! ح نخسر بعض عشان طبخة ؟

— ها !

بدأت أنا بالاستفسار عن مسألة لغوية

— ماما ! هو حنش يعنى إيه ؟

— بسم الله الرحمن الرحيم ! يعنى تعبان

فاتسعت عينا مرمر ذعرا

— طب ليه بابا عايز تعبان يبوسنا ؟

— من كتر بوسكم فى بعض

فتدخلت أنا

— لكن التعبان اذا باسنا موش يمكن يقرصنا ؟

— والنبى تستاهلوا !

ـ عشان البوس عيب ؟
ـ آه
ـ وحرام ؟
ـ آه
ـ ليه ؟
ـ تاني ؟!
ـ موش اعرف يا ماما ؟
ـ ربنا قال كده ، ماحدش يبوس بنت الا اذا كت مراته
فاتسعت عينا مرمر من جديد
ـ طب ما تجوزونا !
ـ شوفي يختي البت !
ـ ماما ! إنتي متجوزة ؟
ـ ياندامتي عليك واد ! ماتعرفشي ابوك ياواد ؟
ـ يعني بابا بيبوسك ؟
ـ لأ
ـ ليه مادام جوزك ؟
ـ طب انكتم بقي لاخبطك بالمقورة دي !

وهو دليل على أنها كانت كوسة لا بامية ، وعلى شاطىء بحر يوسف جلسنا كلنا نشم الهوء ذات غروب . مرمر ماشية تتحجل وفجأة بسطت ذراعيها مثل جناحي طائرة وبدأت تئز

ـ ز ز ز ز ! نفسي أطير يا ماما ! نفسي أطير !
فضربت خالتي نفيسة على صدرها في استنكار
ـ يه بعد الشر عليكي ! مايطير الا عدوك يابنتي

وعلى الشاطىء نطت ضفدعة كبيرة تحدتني مرمر أن أمسكها ،

ولأثبت شجاعتي أطبقت عليها باليدين ، تتلوى في يدي طرية لزجة مقززة فألقيت بها سريعا ، نطت نطتين ودخلت في ثغرة في سور سراى أبي قتب . فجثوت ومرمر بجانب السور نرقبها ، وصوت مفاجىء من داخل الحديقة أفزعنا

ـ إمشوا من هنا ياولاد الكلب !

ووجه من خلال الثغرة لولد أسمر يزغر لنا ، عرفنا فيه ابن أبي قتب

ـ آهه إنت اللي ابن كلب !
ـ آهه إنت آه !

فتناول الولد الأسمر حفنة من التراب وعفر بها وجهينا ، فجريت نحو أمي أريها ماصنع التراب بملابسي

ـ شوفي ابن ابو قتب عمل ايه ؟!
ـ هس اخرس ياواد ماتقولش الكلمة دي !
ـ الله هو موش بقتب ؟
ـ هس وطي حسك ! إنت عايز تودينا ف داهية ؟
وتدخلت خالتي
ـ ده ولي يا حمادة ومن أهل الله

فادهشني أن يكون لله أهل في مديرية بني سويف خاصة إذا كانوا بقتب

ـ ده راجل مبروك وسره باتع . ده لو سمعك بتقول الكلمة دي يئذينا قوي
ـ وهو هنا عشان يسمعني ؟
ـ ده يسمع من آخر الدنيا
ـ إذا قلتها تاني ح يطلع لك عفريت !

فرأيت فى الحمام فى تلك الليلة عفريتا أزرق اللون ، ورأته مرمر فى حجرة الكرار وقالت انه أصفر

ــ والله أصفر

ــ وشرفك أزرق ، انتى شفتيه فين بالضبط ؟

ــ جنب الصحارة

ــ عشان تعرفى انها صفرة موش بنى

ومهما كان لون العفريت فقد أقنعنا بقدرة الشيخ جاد الله على إيذاء الأعداء ، ولم نكن أنا ومرمر أول من أوذى . هنـاك ذلك المستأجر الذى أكل إيجار الفدان فنفر أبو قتب بقرته عينا أسقطتها ميتة ، والمزارع الذى سرق نصيبه فى القطن فاندلعت فى بيته ذات ليلة نار غامضة . لكنه كان لايخلو من الفوائد للاحباب ، كالمرأة العاقر التى ملس على شعرها فأخصبت ، والطفل الذى سمى عليه فشفاه من الرمد الصديدى بعد أن حارت فيه الوحدة الصحية . وذات يوم عاد أحد بلدياته من الحجاز يقول إنه قد قابله هنـاك وصافحه أثناء الطواف ، فى حين أن الشيخ لم يطلع للحج ذلك العام أصلا

ــ فاكر الذكر ؟ الله حى ! الله حى ! الله حى !

وقفزت مرمر برأسها تقلد الذكر وراء سور السراى ، فى الحديقة الواسعة المضاءة بعشرات الكلوبات . أبو قتب فى المقدمة ووراءه عم سـالم ، وطابور طويل من رجال عمـالقة ينحنون ويعتدلون ويتمايلون ويقفزون قائلين أن الله حى . على صوت الدفوف دائما ، ومع الدفوف سرسعت الزغاريد يوم الاحتفال بطهور ابن أبى قتب . وفى عربة حنطور مزينة بالورود زفوا الولد الأسمر فى البلد بعد أن ذبحوا له جملا

ــ طهور يعنى إيه يا ماما ؟

فشرحت لى كيف أنها جراحة صغيرة مثل فتح الدمل ، تؤلم قليلا ولكنها واجبة بأمر الله لكى يصبح الانسان طاهرا

ــ شايفة العروسة الحلوة دى يا مرمر ؟ حاسبى عليها دى باتنين جنيه

عروسة كبيرة ذات فستان من التل الأحمر المنقوش ، إذا ميلتها مرمر إلى الوراء تقول ماما . وعينان سوداوان تدوران فى المحجرين بعكس حركة الرأس ، منظر ملأ نفسى حسـدا

ــ اشمعنى أنا ماتجيبوليش عروسة زيها ؟

ــ هو انت بنت ياحمادة ؟ ح نجيب لك بسكليتة بتلت عجلات

فلعب الفأر فى عبى ، عروسة لمرمر وبسكليتة لى ــ إيه الحكاية ؟

ــ شوف يا حمادة ، إحنا مسلمين وموحدين بالله ؟ موش كده برضه ؟

فلعب الفأر فى عبى أكثر

ــ الشيخ جاد الله قال لعمك سالم حرام نستنى عليكم بعد كده

فكم صرخت مرمر يوم حضر أبوها ومعه ذلك اليهودى التعس ، تشبثت برجل السرير وتعاونوا على حملهـا بالقوة وهى تصرخ وترفس بجنون . أقفلوا عليها الباب ولم أفهم ماذا يمكن أن يكون نفعها لذلك اليهودى

ــ إذا صرخت زيها موش ح اجيب لك البسكليتة !

فلا أذكر أننى صرخت صرخة واحـدة ، على الرغم من العاصفة المحتدمة فى صدرى . فى وجوم قابلت ابتسامة الرجل الكريهة ،

والصلعة الصدئة وهو يجثو على الأرض بين ساقى . اليهودى الذى سمعتهم يصفونه بالنجاسة ألف مرة ، لماذا يحضرونه اليوم لكى يقتطع من لحمى ؟ الموسى الدامية فى اليد النجسة ، كيف أصدق أنها شىء بأمر الله ؟ لكننى لم أصرخ ، مسلما نفسى للعملية مثل ذلك الفتى الذى صوره الرسام الفرعونى ، فى صمت مقدس يقف واهبا لحمه فداء للآلهة

ـ حلوة عروستك يا مرمر ؟

ـ تقرف !

حيث جلست على سريرها محتقنة منكوشـة الشـعر غاضبة ، وتناولت العروسة فطوحتها على طول ذراعهـا ، أصابت برطمان العسل على البوريه وقلبته

ـ آه يا كلبة ! كده العروسة ام اتنين جنيه ؟

ـ أحسن !

لأن الصدمة أتلفت إحدى عينيها ، جمدت فى محجرها وصارت عروسة حولاء

ـ على فكرة رجل العروسة دى لسه عندى ، شفتها مدسوسة مع حاجات قديمة

ـ وإيه جابها لك ؟

ـ موش فاكرة ؟

ـ دى لأ

أرادت أن تهدينى شيئا أتذكرها به فى مصر عندما تقرر رحيلى أنا وأمى ، بعد أن عاد أبى من رحلته الطويلة فى السودان . وعدتنى أول الأمر بأن تعطينى العروسة نفسها ، ثم بخلت بها فى آخر لحظة

واكتفت برجل مخلوعة منها . وفى بيتنا الجديد كنت أقبل تلك الرجل دامع العين . فى البلكونة المطلة من بعيد على مئذنة الحسين

ـ وعليكى انتى تحكى بعد كده ، عملتى إيه بعد انا ماسافرت ؟

ـ دخلت ياسـيدى المدرسة واتعلمت الـكتابة ، موش فاكر الجوابات اللى كنت بابعتها لك ؟

ـ ياريتنى شلتها ، كانت تنفع فى الرواية

ـ المدرسة بعيد .. أنا ومبروكة نمشى لها يوماتى بالساعة

ـ كلام فارغ . المدرسة ورا سراية ابو قتب على طول

ـ ما انت موش عارف كنت بامشى ازاى !

ـ يعنى إيه ؟

ـ ها !

ونهضت مرمر وسارت هنا أمامى ، بخطوات قصيرة متسللة تقلد مشيتها زمان

ـ والله كدهه ياحمادة ! كدهه !

إذ أخبرتها مبروكة أنه رب حركة عنيفة تسبب لها نزيفا خطيرا يفقدها إلى الأبد شيئا غاليا ، ويخيل إليها أن خالتى نفيسة نفسها أيدت ذلك الكلام

ـ ولا يوم ماانا بالعب الحجلة !

بعد سنوات حين فوجئت أثنـاء لعبها بما خيل إليها أنه ذلك النزيف ، أخفت الأمر عن الجميع حتى عن أمها وعاشت أسبوعا من الضياع

ـ عيطت لك يابنى عياط ! وماما تسألنى أقول مافيش

لولا أن مبروكة عثرت على شىء من لوازمها فحملته إلى خالتى

ـ إخص عليكى يا مرمر ! دى حاجة تخبيها على !

وقبلتها وأفهمتها أنه شيء يحدث لكل البنات فى سنها ، وإن كانت الحكاية قد أتت مبكرة نوعا . وصاروا يزجرونها عن الوقوف فى البلكونة ولا يدعونها تخرج من البيت وحدها ، لأن الذئاب على بحر يوسف لا توجد فى الحقول فحسب

— ماهمش عارفين ان فيه ديابة فى المدارس !

— إزاى ؟

— مرة مدرس الحساب نده لى فى أودة المدرسين وباسنى !

— دى أرحم من غيرها . مرة مدرس عربى نده لى أنا وكان عايز يبوسنى !

— ها ! ح تكتب الكلام ده فى الرواية ؟

— طبعا لأ ، هى عنك ولا عنى ؟

— طب زهقت تفكير بقى ، سمعنا حاجة حلوة

— الأليجريتو ؟

— إلا الهباب ده !

لم تعد تحتمل مايثيره فيهـا ذلك الأليجريتو من ذكريات عن الشوارب والضفادع . فأدرت لها النزوات الإسبانية التى تحبها ، ومزيج العسل والنكهة اللاذعة فى شفتى مرمر الرابعة . هنا فى هذه الشرفة على هاتين الشلتتين ، أمام هذين القوسين حول القبر المثلث القريب . بناه خوفو لكى يعيش فيه بعد أن يموت ، محطـة انطلاق لمركبه الخشبية على شـعاع شمس . وعلى صوت الصـفير علا فى السماء صوت أزيز ، وترترة صغيرة لمعت جنب قرص القمر . فلماذا لا أرفع الكأس وأشرب نخبها من زجاجتها ، أليست كل ترترة فى السماء مرمر ؟

— ٢ —

— مرة واحنا عيال ، ومرة وانا بنت ولو انك كنت بتكرهنى يا مجرم !

لكننى فى الحقيقة لم أكن أكرهها عندما أحببتها للمرة الثانية ، إنما كنت أكره النداهة . بعد عشر سنوات فى البيت المطل من بعيد على مئذنة الحسين ، على الكنبة العالية فى الصالة جلس أبى يلضم سبحته التى انفرطت

— مايدخلوها داخلية ! مالنا احنا مافيش فى بلدهم ثانوى بنات ؟

فضربت أمى بيدها على صدرها مستنكرة

— ياعيب الشوم يابو حمادة ؟ بيتى موجود وبنت اختى تدخل داخلية ؟ حقا دى تبقى عيبة كبيرة قوى

ومرة أخرى عاود الكلام فى الموضوع وهو لايعرف إننى أسمعه

— بنت بنوت زى دى وعنـدنا ولد بالغ ، مالنـا احنا ومال المسئولية دى ؟ نحط الجاز جنب النار ونرجع نقول ابصر إيه ؟

فاغتظت منه لهذا الشك فى خلقى ، فرحت فيه بشدة عندما رفع قدمه اليسرى إلى الحوض ليغسـلها وهو يتوضأ . فانزلقت قدمه الأخرى على فردة القبقاب

— إبنى كويس وانا عارفاه ، مابتفوتوش ركعة واحدة .

فشكرت لأمى ثقتها فى ، وفى شوق بالغ جلست أنتظر وصول

خالتى ومرمر . فبأى صورة تدخل على البنت التى فارقتها طفلة ذات وجه كروى وشعر منكوش دائما ؟

حلم حى دخل من البـاب ، حبيبتى مرمر فى الفستان القطيفـة الأحمر . الوجه الكروى أصبح مستديرا متوردا أبيض ، ونجمتان لامعتان حيث العيون السود . مثل شعرها الأسـود الطويل الذى يتهدل على كتفيها ويكاد يلامس منها صدر العذراء ، بسرعة نزعت عينى عن الصدر الناهد والعين تزنى . صافحتها بابتسامة مرتعشة وتحاشيت أن أضغط على يدها ، الفتنة النائمة لعن الله من يوقظها

قبلات كثيرة طرقعت بين أمى وخالتى ، واحتضنت أمى مرمر حتى كادت — يابختها — تفعصها . وفى آخر تلك الطرقة الطويلة أفردت للضيفتين حجرة ، الطرقة المعتمة إلا من شعاع ذابل يتسلل من شباك المنور . ومنذ تلك اللحظة صـارت هذه الحجرة مركز الثقل فى البيت ، خاصة بعد أن حان موعد رحيل خالتى

— ما اوصكيش على مرمر يا فاطمة ..

— ما تخافيش يا نفيسة ، مرمر فى العين دى وفى العين دى

— وانت ياحمادة ..

— يا سلام يا خالتى !

ولاذت مرمر بحجرتها طول الوقت ، بابها مقفل عليها معتزلة خائفة

— يابنتى تعالى اقعدى معانا ..

— باذاكر ياخالتى

وصوتها رن فى أذنى كصوت حورية إذا كان للحوريات صوت ، ومنظرها وهى تحتضن شنطة المدرسة إلى المريلة الكحلية كالنبروعة . أراد أبى من أمى أن تقص لمرمر شـعرها فرفضت ، أهذا الحرير

يا أبا حمـادة شىء يقص ؟ فسـكت وجلس على الكنبة العالية يسبح ، وبلا منـاسـبة يتنحنح كلما مرت به مرمر . فى قدميهـا شبشب صوف أحمر تسير به بدون صوت كأنها قطة بيضاء ، على ساقين رشيقتين بسرعة أنزع عينى عنهما والعين تزنى . فإذا التقيا فى تلك الطرقة وجدتنى أنا الآخر أتنحنح ، أتحاشاها وتتحاشانى كغريبين فى طريق عام

صرت أتلو سورة يس بعد الصبح الحاضر لكى أكون أقـوى على دفع الفتنة . لأن مرمر كانت فى خيالى طول الوقت ، الأنثى التى لم أعرف قط ملمسها ولابد أنه شىء غريب نادر . الأرض البكر لم تطأها قدم إنسان ، الجنون الدافىء المحبوس فى قمقم من اللحم الحرام

— كلى يابنتى ...

— ماناش باكل ياخالتى

لقمة صغيرة تدسها فى فمها بسرعة كأنها تغافلنا ، وتمضغها وراء شفتين لأرنب خائف . وسرعان ماتنهض قائلة أنها شبعت

— يابنتى ده صحنك زى ماهو

— شبعت يا خالتى

وصوت [illegible] فى الحوض ثم صوت بابها يغلق عليها لتعتزل هادئة [illegible] . والله ما كان لها مجى هنا أبدا !

— [illegible] ترجع [illegible] يابو حمادة ؟

لكن هيبة مرمر لم تدم طويلا ، فى عينها طرأت نظرة ماكرة تريد أن تحدثنى عن سر قديم بيننا . نظرة خاصة تقابلنى بها فى الطرقة وهى تبتسم ، وعندما تبتسم البنت مرمر يحدث فى وجهها شىء جد



غريب . تتباعد زاويتا فمها وتذوبان فى وجنتيها فى ابتسامة لها عذوبة العسل ، أرد عليها- بابتسامة مرتعشة ذليلة متهربة وأنا أغض عينا تزنى

وصرت أقرأ سورة يس بعد صلاة العشاء أيضا ، والوتر جعلته ثلاث ركعات مع أن أبى يكتفى بركعة واحدة . وذات مساء جلست فى الصالة أستمع فى الراديو إلى تلاوة للشيخ رفعت ، والطرقة الطويلة المعتمة ممتدة فى صمت إلى باب مرمر المقفل . وفى صمت رأيت الباب ينفرج عن مستطيل من النور فى حجرتها ، ووراءه تقف مرمر فى قميص نوم وردى . هناك تنظر نحوى وتبتسم ، ورفعت يدا سوت بها شعرها الأسود . الفتنة تنادينى عامدة أم أنا أتخيل الأمور ؟ الباب السحرى فى آخر الطرقة المعتمة ، لعن الله من يفكر فى الاقتراب منه

ـ إوعى الشيطان يلعب بعقلك ياحمادة ! مرمر دى زى اختك وأمانة فى رقبتنا

ـ ماتخافيش يا ماما ، أنا موش من دول !

فلماذا خرجت يا ماما فى تلك الأمسية الباردة من أمسيات الشتاء وأنت تعرفين ما تعرفين عن ألاعيب الشيطان ؟ فى تلك الأمسية جلست أرتعد رعدة مزدوجة ، وحدى فى البيت مع الفتنة . بابى أغلقته على ووقفت وراء زجاج النافذة أرنو الى المئذنة البعيدة مستنجدا . وبالقرب منها حدايتان على سطح البيت ، إحداهما تصرخ وتضرب الهواء بجناح مجنون . كاد قلبى ينخلع عندما سمعت تلك النقرة على بابى ، فمن فى البيت سوى مرمر ؟ مرتعدا فتحت الباب ورأيتها أمامى بابتسامة العسل ، فى يدها برطمان عسل وفى عينها نظرة ماكرة

ــ الغطا جامد قوى ، تقدر تفتحه ؟
فتناولت البرطمان وعالجت الغطاء
ــ بذمتك يابت ده كان جامد ؟
هنا فى الشرفة حيث جلسنا نتذكر منذ أسابيع
ــ ها ! ولما هو موش جامد مافتحتوش دغرى ليه ؟
لأننى فجأة صرت يوسف أمام امرأة العــزيز ، ثوبه قد من دبر لأنه رأى برهان ربه فأين لى بمثل ذلك البرهان ؟ غطاء البرطمان عصلج فى يدى أنا الآخر بلا مناسبة ، وبحثت عن علبة كبريت لكى أسخنه بها . الأجسام الصلبة تتمدد بالحرارة ومرمر واقفة تبتسم ، شعرها الأسود يتهدل كحبائل الشيطان على صدر العذراء . فلما فتح البرطمان ناولته لها وهمت بالخروج فأمسكت يدها ــ كلا كان الشيطان لا أنا هو الذى أمسكها . بيد متوترة مثل قلبى وأحشائى جذبتها لتجلس على الكنبة ، وكان صوتى حين تكلمت لزجا يتهدج
ــ مرمر !
ــ إيه حمادة ؟
ــ تقعدى معايا شوية ؟
ــ ليه ؟
ــ مرمر ...
وأحطت كتفيها بذراع ترتعد مثل كل خلية فى جسدى
ــ حمادة ! بتعمل ايه ؟
ــ احبك يا مرمر !
وقبلت وجنتها بشفتين محمومتين ، ووثب كتفها البعيد فى يدى وثبتين
ــ حمادة !

ــ مرمر .. تحبينى ؟
ــ قوى يا حمادة !
بحثت عن شفتيها ، أول شفتين لأول أنثى فى حياتى . اللسعة الزهية للنشوة الأولى لحظة الاكتشاف ، الجنون الساخن فى اللحم الحرام . لحظة خاطفة من النشوة وأدرت لها ظهرى وأنا أرتعد ، رأيتها تسرع بالخروج متعثرة فى فردة خلعت من شبشبها الأحمر
فأقفلت بابى ووقفت أبكى وراء زجاج النافذة ، ناظرا فى ذلة الى شــبح المئذنة التى بدأ يلفها الظــلام . ما كان أتعس آدم وهو يغادر الجنة محملا بخطيئة البشر ، مطرق الرأس خزيان يدارى باليد الآثمة عورته
ــ يارب ! إنى أخطأت ولكن رحمتك وسعت كل شىء . أعف عنى يارب وأعاهدك على أن لا أعود الى الزلل من جديد !
كنت دائما أخاطب الله باللغة الفصحى توقيرا له ، تعالى سبحانه عنى وعن توقيرى . وتطهرت وتبت وانتهزت فرصة لقائى بمرمر فى الطرقة المعتمة
ــ سامحينى يا أميرة ، الشيطان وحش !
صامتة نظرت إلى باستغراب
ــ أنا ضعفت لكن خلاص تبت.. سامحينى يا أميرة !
فأشاحت بوجه متورد وابتعدت ، وذات مساء جلست أستمع إلى الشيخ الشعشاعى . ليت الراديو لم يكن موضــوعا فى تلك الزاوية من الصالة ، حيث يشرف الجالس على تلك الطرقة الطويلة الممتدة إلى باب الفتنة الذى فتح من جديد . وفى مستطيل الضوء خلال البــاب المموارب أشرقت على وجه مرمر ابتســامة العدل ، ورفعت إصبعا إلى شفتيها فقبلته . ألف طبلة دقت فى صدرى مكان

القلب ، وذكرت النداهة التى طالما سمعت عنها فى حواديت أمى ، حيث مكان الثديين شوكتان حادتان تغوصان عند العناق فى صدور الرجال

ــ هى اسمها النداهة ولا المزيرة ؟

هنا فى الشرفة ونحن نتذاكر فقالت ها ، ثم غلظت صوتها لتقلدنى

ــ سامحينى يا أميرة ، الشيطان وحش ! كان دمك تقيل بشكل !

ومربع زجاجى مضىء فى باب حجرة أبى المغلق ، سيقرأ قليلا ثم ينام . نور الإيمان فى حجرة أبى أنتظر أن ينطفىء ، العبد الخاطىء الرابض فى ظلام حجرته يرتعد . النداهة نادتنى للرحلة الآثمة وانتهى الأمر . فى حذر اللص أتسلل فى الصالة والناس نيام ، زاحفا على أربع مثل ذئب فى حقول بحر يوسف . الرحلة المحمومة على البلاط الساقع فى زمهرير الشتاء ، بين المائدة والبوفيه يزحف العبد الخاطىء وهو ينتفض . فى عقله يستذكر أماكن الأشياء مخافة الاصطدام بضرفة البوفيه ، أو بوز كرسى يدخل فى عينه الآثمة . والحائط الحجرى طوال الطرقة يكاد لا ينتهى أبدا ، ثم ملمس خشب الباب والأكرة المثلجة التى تدور بصرير خافت

ــ يارب إنى زللت ثانيا ولكن رحمتك وسعت كل شىء ! أبتهل إليك يارب أن تعصمنى من شر نفسى ، وأن تلبى لى هذا الطلب الصغير !

معاهدة صغيرة رجوته تعالى أن يعقدها معى ، البند الأول فيها هو استثنائى من حكاية أن كل أجل له كتاب . أنا أضرع إليه تعالى أن يصعقنى للفور إذا ما مددت يدى الآثمة إلى أكرة باب مرمر ، وذلك توطئة لأبد يقذف بى إلى جهنم خالدا فيها أبدا . حقا ان المشرك وحده هو الذى يطرد من رحمة الله إلى الأبد ، ولكننى أريد

هذا الاستثناء الجديد ، بأن يرفعنى سبحانه من مرتبة زان عادى إلى مرتبة مشرك . بهذه الطريقة وحدها يسد على مسالك الزلل ويقينى شر نفسى ، فهل أنا مجنون حتى أعرض نفسى لعذاب الأبد فى السعير فى سبيل لحظة من الجنون الساخن ؟

وفى الطرقة تصيدت مرمر من جديد لكى أعتذر لها

ــ خلاص يا أميرة ، صدقينى خلاص !

فواجهتنى بنفس النظرة المستغربة

ــ موش ح اضعف تانى ، صدقينى يا أميرة . بس انتى كمان لازم تساعدينى .. سكى بابك عليكى قبل ما تنامى !

لكن باب مرمر لم يسك أبدا ، ولذلك أرجو أن لايكون الله قد قبل تلك المعاهدة وإلا فأنا من المشركين . طوال السنة الدراسية وحتى بعد أن اقترب الامتحان ، قلبت وجوه النظر فى الموضوع حتى استقر رأيى على قرار حاسم ، دخلت على أمى ذات صباح وأظنها كانت جالسة تقشر بصلا

ــ ماما ! أنا عايز أكلمك فى حاجة

ولا بد أن صوتى كان خطيرا بدليل تلك النظرة الخائفة التى بدت فى عين أمى

ــ أميرة لازم تمشى من هنا يا ماما !

فواصلت النظر إلى بتلك النظرة الخائفة ثم خفضت رأسها وقد فهمت ، كأنها كانت تتوقع أن تسمع هذا الكلام من زمان . وحكيت لها قصة ملفقة عن الشيطان الذى لعب بعقلى وأرسلنى ذات ليلة إلى باب أميرة ووضع يدى على أكرته ، كدت أفتحه وأدخل لولا أن رأيت مثل يوسف برهان ربى ، فمن يضمن لنا أن أرى ذلك البرهان فى كل مرة ؟ أليس من الممكن أن أضعف ذات يوم وأورط نفسى

وأميرة فى شيء لا تحمد عقباه ؟

ـ وماتنسيش ياماما انك انتى اللى كلمتينى بنفسك عن الشيطان !

ومرمر زى اختى وأمانة فى رقبتنا !

فترقرقت فى عينيها دموع لا أعرف ان كانت من الحزن أو البصل أو منهما معا

ـ إخص عليك ياحمادة ، إخص عليك !

ـ يعنى الحق على اللى باقول لك بنفسى ؟

ـ ماكنتش باحسبك كده أبدا . أودى وشى فين من خالتك ؟

ـ أنا عملت اللى على وخلاص . نحط الجاز جنب الكبريت ونرجع نقول ابصر إيه ؟!

فلست أدرى ماذا قالت أمى لأبى ، ولست أدرى ماذا قالت فى الرسالة التى بعثت بها لخالتى . لكننى أتخيل نوع الكلام الذى قاله أبى فى رسالته لعم سالم ، عن الجاز والنار ووجود المباعدة بينهما توقيا لحريق يهلك الحرث والنسل

البنت اللى سارت نحو باب الخروج بشنطة السفر ، منظر لن أغفره لنفسى ماحييت . مطرقة الرأس مزمومة الشفتين تخرج أمام أبى ، وددت لو تنشق الأرض وتبلعنى . لم تنبس بحرف وأمى تسفرها بعبارات الوداع ، فى عينها الجريحة تحتدم نظرة حادة من الكبرياء الفاشلة . منظرى فى المرآة جعلنى أتقزز ، بصقت على المرآة ثم مسحتها بفوطة



ـ ٣ ـ

مرمر وحمادة ساجيتان محمرتان فيما تبقى من ضوء الشفق ، بعد أن غربت الشمس بالقرب من قمة الهرم مقصوف الرأس ، وفى ذات غروب كهذا سرحت مرمر ببصرها عبر الحقول وتصعبت

ـ موش عارفه ليه دايما الغروب يزعلنى

ـ إتخيلى نفسك فى الناحية التانية م الأرض تلاقيه شروق

لكننى أنا الاخر كنت حزينا ، لشعورى حيث جلسنا بأن تلك التى تجالسنى كان يمكن أن تكون زوجتى

ـ بذمتك يامرمر ، لو جيت خطبتك كان ابوكى وافق ؟

فرمقتنى فى ازدراء عابث

ـ طبعا لأ ، إنت مين إنت ؟

ـ سبقنى ابن الكلب !

الولد الأسمر فى العربة الحنطور المزينة بالورود وسط الزغاريد ، أخذ بكالوريوس الزراعة قبلى بسنتين وعاد إلى بحر يوسف لاستلام العرش الطين

ـ معقول ابن الشيخ جاد الله يخطبنى وبابا يقول لأ ؟

ـ كان يطلع له عفريت ! وعلى فكرة العفريت كان ازرق موش بتمسجى

لكنها لم تكن فى نوبة جدل ، سرحت عبر الحقول وتصعبت من جديد

ـ طول ماانا قاعدة فى الكوشة اتبصص عليك

وأمى أيضا أرادت أن أصحبها إلى الفرح الكبير على بحر يوسف لكنني رفضت . فى البلكونة المطلة على مئذنة الحسين جلست وحدى أبكى ، فى أسوأ ليلة مرت على فى حياتى . من خلال دموعى تتراءى صورة محمومة لمرمر بين أحضان رجل آخر ، وأنا المسئول عن إلقائها بين تلك الأحضان

ـ بذمتك عيطت صحيح ؟

أى والله وأغرقت صفحات من إرادة الحياة ، آمنت مع شوبنهور بأن الحياة شر

ـ أصل شكلك موش وش عياط أبدا !

والله بكيت وأغرقت صفحات نقد العقل الخالص أيضا ، ساعد على ذلك بالطبع أننى لا أفهمه

طوال شهر العسل أغرق بدموعى مقررات الفلسفة فلا أدرى كيف نجحت فى الامتحان

ـ أنا كمان عيطت لما شبعت

ـ معذورة ، موش مجوزينك وولف ؟

وانتظروا أن تحمل فلم تحمل ، شهرا بعد شهر مع أن الطبيب قال انه ليس فيها عيب

ـ ليه ماخلوش ابو قتب يملس عليكى ؟

فضحكت مرمر

ـ بلا نيلة ، ملس لما ايديه وجعته !

وفسروا تلك الخيبة بأن كرامات الولى لاتجوز على أهله ، وبالطبع لاتجوز عليه بدليل أنه مات . من جديد أرادت أمى أن أصحبها لحضور الجنازة ولكننى رفضت ، وعادت من هناك تحكى عن

النعش الذى طار والمشيعون يلهثون وراءه على شاطىء بحر يوسف

ـ وماما ياعينى وراه بشهر واحد

وهذه الجنازة حضرتها ، ومن بعيد فى آخر البيت لمحت شبحا لمرمر ملفوفا فى السواد ، تائهة وسط عشرات من النساء التائهات مثلها فى السواد . وبموت خالتى قطعت نهائيا عن أخبار مرمر ، طول الوقت أتخيلها فى تلك السراى الصفراء على بحر يوسف ، غير عالم أن زوجها قد هاجر بفلوس أبيه الى القاهرة واشترى تلك الفيلا فى المعادى

ـ يعنى برضه ابو قتب خيره علينا

ـ إزاى ؟

ـ إيه لنا على بعض غير كراماته ؟

ـ أيوه انما أنا اللى خليت محمود يجيبك

ـ صحيح كنتى دايما بتقرى مقالاتى ؟

ـ ولا واحدة فاتتنى

ـ حبيبتى مرمر

الصوت الغريب الذى كلمنى فى التليفون يقول أنه محمود جادالله

ـ موش عارف بلدياتك يا أخى ؟ موش عارف جوز بنت خالتك ؟

ودعوة منه إلى فنجان شاى فى المعادى ، وعبر فنجان الشاى واجهت أكبر شنب رأيته فى حياتى . كتلة خرافية من الشعر الكثيف الأسود تلغى شفته العليا تماما ، وشعرات منها تتسرب إلى ما بين الشفتين فيدفعها بطرف لسان أحمر . تندة عجيبة تتدلى وسط وجهه الأسمر المستدير ، فوق الرقبة السميكة والكتفين العريضين للرجل الذى كان رياضيا قبل أن يترهل

ـ طبعا سيادتك فاكر المرحوم والدى ...
ـ إلا دى ! هو والد سيادتك من الشخصيات اللى تتنسى ؟ كم قتبا يقابل المرء فى حياته ؟
ـ وطبعا سمعت عن الخوارق اللى كان بيعملها ، ولا سيادتك ما تؤمنش بالحاجات دى ؟
ـ إزاى بقى !
كنت فيما مضى أحب أن أتجادل فى تلك الأمور قبل أن أكتشف عقم الجدل ، ثم اننى بالطبع لم أحضر الى المعادى لكى أتجادل
ـ من كام شهر كدة جانى فى المنام
ولابد أنه كان يلبس أبيض فى أبيض
ـ قال لى يامحمود يابنى ، إنت موش تعرف تكتب ؟ قلت له آه . قال لى طب ليه ماتكتبش كتاب عن أبوك ؟ أنا طبعا ماليش قوى فى الكتابة لكن ماجبتش ازعله . عنها وقعدت كتبت كام ورقة كده أحب آخد فيهم رأى سيادتك ...
وفتح دوسيها كبيرا أخرج منه رزمة أوراق وهو يتنحنح ويطرد بلسانه شعرة
ـ على فكرة بقى انا باتابع مقالات سيادتك ومعجب بأسلوبك جدا . إيه رأيك فى عنوان « المعجزة فى ضوء العلم الحديث » ؟
ـ عظيم جدا
ـ الأسلوب طبعا موش ممتاز قوى انما البركة فى سيادتك . لو تتعاون كده فى الصياغة بس نحافظ على روح الكتاب . وطبعا الشغل شغل ، يعنى انا موش ح اضيع وقت سيادتك هدر
كلا لن يضيع وقتى هدرا ، مادام قلبى دق على نقرات كعب الحذاء المقترب من الباب ، وقبل أن تدخل مرمر سبقتها موجة عطر . حلم جديد دخل من الباب ، العذراء ذات الشعر المتهدل صارت تحفة

ناضجة . شعرها بإخسارة قص على الموضة ولكنه مابرح بروازا أسود حول صورة من الجمال الأبيض الدافىء . وجهها استطال بعض الشيء فازداد فتنة ، بخطى وئيدة تتقدم نحوى فى سحابة العطر . بابتسامة صغيرة صافحتنى وبضغطة متحفظة
ـ أهلا أستاذ حمادة !
ـ أهلا أميرة هانم !
صوتها نضج مثلها واكتسب رنة عميقة مطربة . لم أر عينيها بسبب تلك النظارة السوداء القاتمة ، ولابد أنها تعمدت أن لا أرى عينيها .
ـ على فكرة بنت خالتك هى اللى فكرتنى استعين بيك ، واهه يبقى زيتنا فى دقيقنا
لا حرمنى الله من بنت خالتى ، وقفت تتلفت حولها كمن يبحث عن شىء ما ، على ساقين ناضجتين تدور وتستعرض الحجرة من خلف النظارة السوداء ، فلما يئست من العثور على حاجتها خرجت فى صمت . توقعت أن تعود ولكنها لم تفعل ، كأنها مادخلت وما صافحتنى إلا كشىء عارض فى رحلتها الباحثة . تريد أن تعاقبنى وهذا أقل ما أستحق من عقاب
ـ المهم تقراه الأول وتقول لى رأيك بصراحة
فلو أننى فعلت لطردنى من بيته طردا ، المحاولة الرقيعة من رجل ربع مثقف لتسخير مفاهيم الذرة والإشعاع والنسبية فى إثبات أن الشيخ جاد الله يمكن أن يوجد فى الوقت نفسه فى أفريقيا وآسيا ، واللمسة المباركة التى هى أفعل فى شفاء الرمد من التراماىسين . لو أننى صارحته برأيى فى كتابه لما رأيت مرمر ثانية ، لكن مرمر تستحق كذبة صغيرة

— أنا برضه قلت انه ج يعجبك !

وتنحنح ونبذ شمرة ، ومن جديد دق قلبى على نقرات كعب الحذاء المقترب . بالنظارة السوداء تسير فى سحابة العطر ، حيتنى بإيماءة وجلست غير بعيد تعالج خيوط التريكو

— فيه ناس تقول دى خرافات ، لأنهم ماشفوهاش زى احنـا ماشفناها

والله ما رأيتها أكثر من ذلك العفريت فى الحمام ، ولكن ما باليد حيلة

— معظم الناس عايشة بالعقلية الميكانيكية بتاعة القرن التاسع عشر .

— فعلا

ساق على ساق فى شراب كاروهات أسود ومدت يدها فغطت بذيل الفستان ركبتها

— تحطيم الذرة ده إيه .. موش معجزة ؟

— فعلا .

ساق السيدة الناضجة التى كانت ساق قطة فى شبشب أحمر . ترى ماذا يكون شعورها عندما ينفرش ذلك الشنب الفذ علىشفتيها فى لحظة حب ؟

— والراديو اللى يسمعك من آخر الدنيا فى التو واللحظة ؟

— فعلا

— والتلفزيون والتلغراف واللاسلكى ، موش كل دى معجزات ؟

— فعلا .

تراقبنى فى أغلب الظن من خلف نظارتها مرهفة الأذنين للحديث تحاول أن تتأكد من موقفى . هل كنت أطمع نفسى أم رأيت حقا

لمسة احباط من شفتيها المطبقتين على صبر طويل ؟

— إيه الفرق بين صورة تنتقل لك فى التلفزيون ، وبين روح تنتقل من مصر والحجاز ؟

— فعلا

— دى معجزة ودى معجزة

— فعلا

وهنا فى هذه الشرفة غلظت مرمر صوتها لتقلدنى

— فعلا ! فعلا ! دنت يابنى منافق بشكل !

أنا نفسى كرهت نفسى ولكن ما باليد حيلة

— بس أرجوك وانت بتعيد الكتابة تحافظ على روح الكتاب .

ويا سلام لو تقرا لى إللى بتكتبه أول بأول

ولذلك قبلت الصفقة ، وجلس أبو شنب يقرأ ماكتبت ويهز رأسه باعجاب . سحابة عطرها تسكرنى ، ألن تخلع هذه النظارة السوداء أبدا ؟

— حلو ! عفارم !

لكنه مابرح أن توقف بعد صفحتين وبدا عليه الامتعاض ، أرعش أصابع يده اليمنى دلالة اهتزاز شىء ما .

— متهيأ لى الحتة دى كده يعنى .. موش ماشية مع روح الكتاب

عدة نقاط لا تسير مع روح الكتاب ، دمجتها قدر استطاعتى فى روحه وعلت

فى حديقة الفيللا جلسنا ذات صباح مشرق بالقرب من شـجرة فتنة . أبو شنب يقرأ ومرمر هلت والحمد لله بغير نظارة سوداء ، تقدمت نحو الشجرة المرصعة بمئات الزهور الكروية الصـفراء . ما أحلى العيون السود وهى تومىء نحوى ، فوق بشير لابتسـامة

العسل على شفتيها . قطفت عدة زهرات ورفعت واحدة إلى الأنف الجميل تشمها ، ثم بسطت نحوى يدا عليها كبشة زهور ، بإصبعين سعيدين بملامسة راحتها أخذت واحدة ، نهلت من عطرها رافعا وجهى فى امتنان نحو العيون السود

تبسمت لها فحادت عنى ببصرها ، ثم ذهبت غير بعيد وانخفضت تفترش العشب الأخضر ، مثنية الساقين تحتها معتمدة على الأرض بيدها اليسرى

ــ متهيألى ان الحتة دى برضه كده ..

وأرعش أصابعه ونبذ شعرة

ــ موش ماشية مع روح الكتاب ؟

ــ شوية ، معاك قلم ؟

بالقلم شطب فقرة كاملة فيما يشبه القرف ، ومرمر تختلس النظر إلى لترى وقع ذلك التصرف على . ولا يهمك يامرمر ، فى سبيلك فليشطب كل ماكتبت . وفى يدها مرآة صغيرة رفعتها أمام وجهها وحكت بظفرها شيئا شاب وجنتها

ــ يعنى مثلا لو نقول بدل كده ..

لكنه لم يقل شيئا ، والقلم ظل فى يده جامدا

ــ تقول إيه ؟

ــ صبرك على شوية

ــ على أقل من مهلك

جاحظ العينين من جهد التفكير ، يحتاج فيما يبدو إلى إحدى معجزات أبيه لكى يكتب سطرا . ومرمر نظرت إلى الكاتب المحتاس ثم إلى ، لأول مرة قابلتنى العيون السود بنظرة طويلة فيها ذكريات . فلما ابتسمت لها تبسمت ، غاصت زاويتا فمها فى وجنتيها فى أحلى

ابتسامة عسل . حبيبتى الحلوة سامحتنى ، غفرت ذنبى وأهدتنى فتنتها

ــ أنا طبعا ماليش فى الكتابة ، بس عايز احافظ على روح الكتاب

ورن جرس التليفون داخل المنزل وناداه الخادم فقام ، لأول مرة أجدنى مع الحبيبة وحدى . بمرآتها صادت شعاعا من الشمس وسلطته على زهرة صفراء من شجرة الفتنة

ــ واحشانى قوى يا أميرة

فلم تجب ، مشغولة بإجالة الشعاع الدافىء على الزهور

ــ عاوز اشوفك يا أميرة

فلم تجب ولم تبتسم ، عابسة أدارت الشعاع وسلطته على وجهى

ــ لازم تتقابل يا مرمر !

فلم تجب ولم تبتسم ، تجيل الشعاع الساخن على وجهى باحثة عن عينى

ــ أرجوكى يامرمر !

فوضعت المرآة وراحت تتأملنى طويلا ، خيل الى أننى رأيت فى العيون السود نظرة ازدراء

ــ بايخة قوى !

لم تقل شيئا غير ذلك ونهضت

ــ مرمر !

وأشاحت بوجهها وأولتنى ظهرها لتدخل البيت ، رأيتها تصعد السلمتين من خلال خزى اليم

ــ تستاهل !

هنا فى الشرفة فى مثل هذا الغروب ، والشجرتان محمرتان فيما تبقى من ضوء الشفق

ـ ودى تيجى إيه جنب اللى عملته فى ؟!

ـ يعنى صحيح ماكنتيش ح تقابلينى ؟

ـ طبعا لأ !

ـ اخص عليكى !

ـ لا ياشيخ !

ـ يبقى راخر ابو شنب خيره علينا

ـ بلاش ابو شنب دى !

ـ آلا روح الكتاب آلا ... ياخى طلعت روحك !



ـ ٤ ـ

مطرب صوت البنت التى قالت فى التليفون أن اسمها فايزة ، وأن أميرة عندها وتريد منى أن أزورها هناك . لم أعرف لماذا لا تكلمنى أميرة بنفسها ، لأننى لم أعرف أنها تكره البكاء فى التليفونات

البنت المختنقة السمراء ذات العيـون الخضر ، فتحت لى باب الشقة فى مصر الجديدة وقادتنى إلى الصالون حيث جلست مرمر مقروحة العينين . أرادت أن تحكى لى بنفسـها فاختنق صـوتها بالبكاء

ـ إحكى له انتى يا فيفى !

فتنهدت فيفى وبسطت حولها راحتين حائرتين

ـ الأستاذ جاد الله جوزها ...

ـ ماله ؟

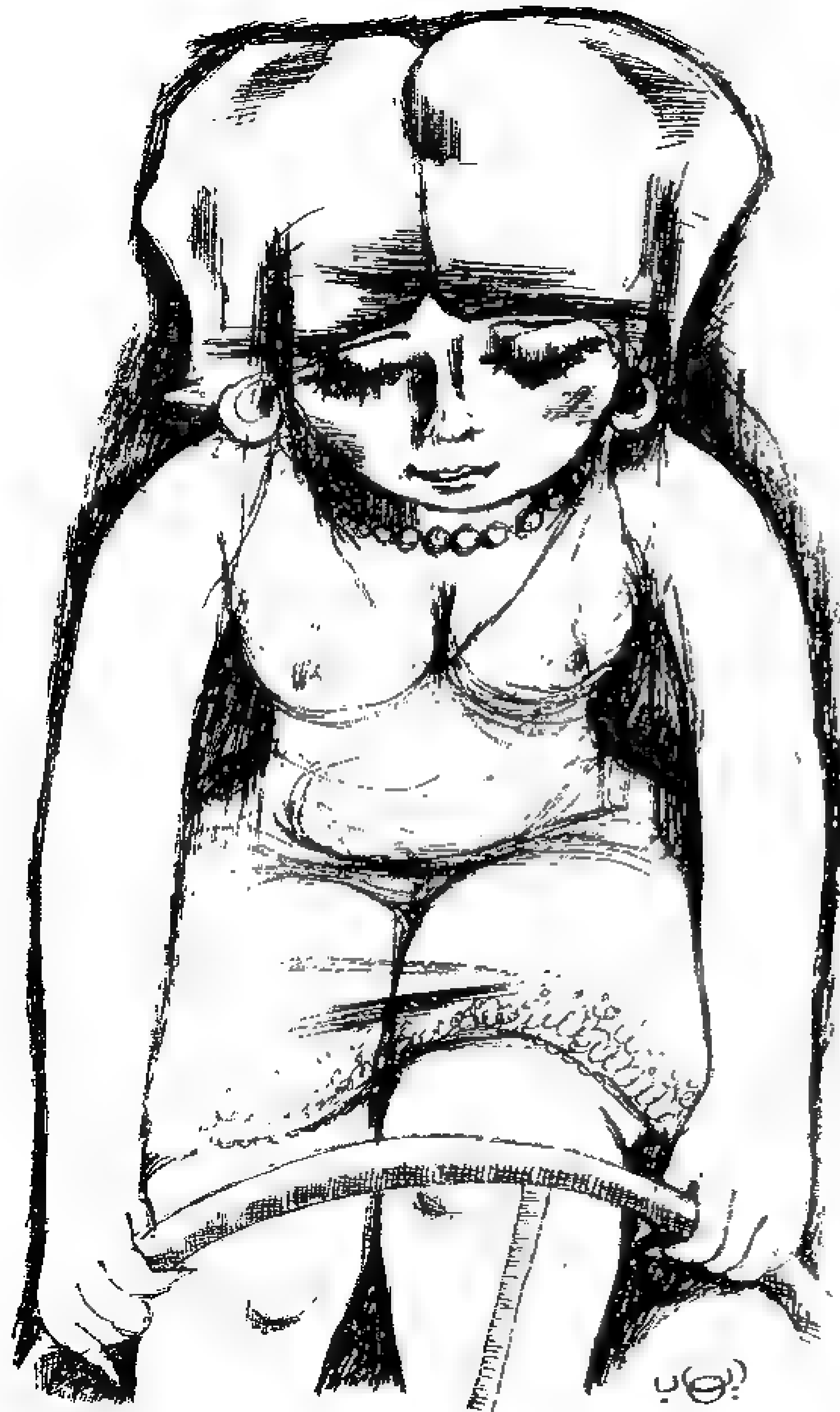
ـ متجوز عليها !

ـ إيه !

فاتورة بمائتى جنيه فى درج المكتب الذى نسى مفتاحه ، ثمن لمطبخ عصرى يشحن باسمه إلى شقة فى الدقى . وقال بواب العمارة أنه يسكن تلك الشقة منذ سنة كاملة ويظن أنه عريس جديد

ـ سنة يحالها ابن الكلب ولا أناداوية !

وفى عين مرمر اليسرى من خلال دموعها رأيت ماخيل إلى أنه حول



خفيف تراءى لحظة ثم اختفى

ـــ آل إيه عايز عيل .. مع إن كل الدكاترة قالوا العيب موش من مرمر

ـــ كل يوم والتانى يقول لى بايت فى البلد وانا اصدقه زى الحمارة !

وأمام دموع مرمر دهمتنى عاصفة من العواطف المتناقضة ، الرثاء لها والحزن من أجلها وفرحة أنانية بشمل يمكن الآن أن يجتمع

ـــ طلقيه حالا ! ماتقعديش معاه يوم واحد !

ـــ ماقالت له مارضيش

وغلظت مرمر صوتها وسط دموعها تقلده

ـــ إحنا ماعندناش طلاق ! أنا راجل حر ولى فى الشرع اربعة !

ولابد أنه طرد بلسانه شعرة

ـــ لازم تشوف لنا محامى كويس

فلما عدت بفتوى المحامى كانت مرمر لاتزال تبكى ، وزاد من بكائها ماقاله المحامى من أن زوجها فعلا رجل حر وله فى الشرع أربع زوجات . فاذا هى أصرت على النشوز فمن حقه أن يمتنع عن الإنفاق عليها . وفكرة خطرت للسمراء المحنكة ذات العيون الخضر

ـــ إرجعى له واقعدى ناكفى فيه لغاية ما يطلقك ، ما فيش غير كده !

وأيدت أنا الفكرة فنفخت مرمر من أنفها ساخرة

ـــ ده حد يعرف يناكفه ؟ ده يناكف بلد !

ورفعت يدها إلى كتفها وهى تفكر ، لحظة تردد ثم أزاحت كم الفستان عن كدمة زرقاء . إلى تلك الكدمة حملقت أنا وفيفى ثم هتفنا معا

ـ بيضربك ؟
فضحكت مرمر ضحكة عصبية صغيرة
ـ ياريت .. بيعضنى !
وليس ذلك فى أوقات الشجار وانما فى أوقات الحب
ـ ولو بشويش كان معلهش ، الا ابن الكلب بعزم مافيه !
فأشاحت فيفى بوجه تورد وغطت بيدها ضحكة . ومن جديد رأيت ذلك الحول الخفيف يتلاعب فى عين مرمر اليسرى ، ورفعت إصبعا تدعكها
ـ العياط وجع عنيه الله يخرب بيته !
وعادت فيفى تلح بفكرتها
ـ إسمعى كلامى أنا ، إرجعى له وافضلى وراه لغاية مايطلقك
فلما نقل التليفون صوتها بعد أيام سمعت فيه نبرة يأس
ـ آدينى رجعت ياسيدى
ـ وكلمتيه تانى فى الطلاق ؟
ـ مافيش فايدة ، راسه وألف سيف مافيش طلاق
ـ ولا دكهة ؟
ـ ولا دكهة ؟
ـ الله يخرب بيته !
ـ على كل حال انا خلاص
ـ خلاص ايه ؟
ـ طظ فيه ! عنه ماطلقها ! وعنه ماطلقنى ! أنا ح اموت نفسى عشانه ؟
ـ مرمر !
ـ ههم ؟

ـ تتقابل إمتى ؟
وأصرت مرمر على أن تتولى قيادة سيارتى بنفسها ، فى ذلك الصباح المشرق فى طريقنا الى الهرم
ـ خلينى اسوق من نفسى ! إبن الكلب ما بيخلينيش اسوق الا بطلوع الروح !
إلى بروفيلها الجميل جلست أنظر ، والإيقاع الفاتن لحركة الركبتين وهى تدوس الفرملة والدبرياج
ـ ماتبصليش كده !
ـ ليه ؟
ـ بتلخمنى ؟
ـ ماعاش اللى يلخمك
وعلى الطريق المرتفع نحو الهرم الأكبر سمعت من سكسكة الموتور مادلنى على أن أبا شنب معذور من الخوف من قيادتها . وشريط الأسفلت اللامع الذى يتلوى كثعبان أسود وسط صفرة الصحراء نحو صحارى سيتى . ويالها من فرحة وحشية غمرتنى وأنا أسحب لها الكرسى لكى تجلس عليه ، فى ذلك الركن البعيد من الكازينو الهادىء . رعدة جامحة فى صدرى كان يجب أن أغرقها فى زجاجة بيرة ، ونظرة شعور بالجرم فى عيون مرمر حين أتى الجرسون بابتسامته الخبيثة . ملأت لها الكوب بالسائل الكهرمانى الفائر ، شفطت منه شفطة وارتعدت
ـ ساقعة قوى ! وأصلى ماباشربش
ـ خالص ؟
ـ مرة ولا اتنين عند فيفى
لكننى جرعت كوبى وطلبت زجاجة أخرى ، ورأيت مرمر

ترقبنى ساخرة

ــ انما احنا اتغيرنا قوى !

ــ يعنى إيه ؟

ــ إتمدننا وبنشرب بيرة ! موش حرام البيرة دى ؟

ــ أما تكون سخنة بس ! وماتنسيش ان الجنة فيها نهر نبيت والواحد لازم يتمرن له !

فضحكت وهمت بأن تقــول شيئا أسعدنى أنهــا عدلت عنه . وتنهدت وسرحت ببصرها إلى الصحراء الصــفراء المترامية ، تابعت نظرتها إلى تلين بعينين مستديرتين كنهدى عذراء

ــ يابختك يافيفى !

ــ على إيه ؟

ــ طلقت جوزها من سنتين !

ــ عقبالنا يارب !

ومع الشراب تورد وجهها وراحت تثرثر ، معتمدة بكوعها على المائدة والكوب مرفوع فى يدها يتمايل بجانب شعرها الأســود . تتمنى أن تكون مثل فيفى بنت جيرانهم فى المعادى ، صارت مضيفة جوية فهجرت بيت أهلها لتقيم وحدها فى مصر الجديدة قرب المطار

ــ يوم باريس ويوم لندن ويوم روما ، باحسدها بشكل !

وسرحت ببصرها فى الصحراء من جديد ، ثم نظرت إلى بمكر وقد ذكرت شيئا

ــ إنما انت ليه ماتجوزتش لحد دلوقت ؟

ــ أتجوز ليه ؟

ــ الناس كلها بتتجوز ليه ؟

ــ عشان تجيب عيالْ تستخبى ورا الصحارة !

فضحكت مرمر ، وناظرا فى العيون السود قرأت مئات الذكريات التى تمنيت أن أثيرها ، لكننى خفت أن أصل إلى البنت التى قصدت إلى الباب بشنطة السفر . ونظرت مرمر فى ساعتها وشعور الحسرة بالفسحة التى انتهت ، فى السيارة التى قدتها بسرعة السلحفاة على الثعبان الأسود ، وشوق أليم فى نفسى إلى البنت التى لاذت بآخر المقعد بعيدا عنى

ــ مرمر !

ــ ههم ؟

ــ قربى منى

فطرقعت بلسانها رافضة ، وكان صوتى لزجا وأنا أكرر الرجاء

ــ والنبى يامرمر ، قربى نسوق سوا

ودق قلبى كالطبل على صوت حفيف فستانها وهى تزحف نحوى ، ومدت إصبعين أمسكت بهما حافة الدركسيون

ــ كويس ؟

كتفها يلامس كتفى وعطرها يملأ روحى ، تجاسرت ورفعت ذراعى فوضعته على المسند خلف كتفيها . لكن شيئا عجيبا شل يدى ، كافحت طويلا حتى أرغمت إصبعا على أن يمس برفق كتفها البعيد . لكننى فجأة شعرت بأنفاسها على جانب وجهى ، متسارعة الأنفاس أدارت وجهها نحوى . وكرجل فى حلم شعرت بشفتيها على خدى ، قبلات متلاحقة غمرت بها وجهى . فوالله يامرمر ما أعرف كيف نجحت فى ركن السيارة على جانب الطريق ، والجسم العزيز الذى ضممت فيه أمل عمر . نهلت من شفتيها ومن عبير عنقها ، ومن خلال شعرها الأسود رأيت عند التلال البعيدة مايشبه أنثى أسطورية متمددة . لعن الله تلك الضحكات التى جلجلت فى سيارة عابرة ، تركتنى مرمر

وعادت إلى الركن البعيد مضطربة الصدر محتقنة الوجه ، بسرعة غطت عينيها بالنظارة السوداء ! لم تنبس بكلمة طوال الطريق ، إلى أن رأتنى أحيد بالسيارة فى الشارع الضيق على مشارف الحقول

ـ إيه على فين؟

نبرة قلقة فى صوتها لكننى أجبتها بابتسامة حب صامتة

ـ على فين صحيح ؟

وكان باب الحديقة مفتوحا فدخلت ، وركنت السيارة هنا أمام هذه الشرفة

ـ إيه ده ؟

ـ بيتنا

ـ وجاى هنا ليه ؟

نبرة القلق صارت نبرة خوف واضح

ـ موش عايزة تشوف بيت ابن خالتك ؟

ـ لأ موش عايزة ! روحنى حالا !

ـ دقيقة واحدة بس

ـ حمادة ! روحنى باقول لك

نبرة الخوف مازجتها رنة غضب ولكننى تماسكت ، نزلت وفتحت لها الباب

ـ عشان خاطرى . دقيقة واحدة

وجذبتها برفق من يدها فنزلت متأففة محتقنة الوجه ، تعثرت على السلمتين المؤديتين إلى الباب . وفى الصالة وقفت متصلبة تجيل حولها نظرة سريعة

ـ خلاص شفته ، يالله بقى

ـ مرمر !

وبرفق دفعتها لتجلس على الكنبة وجلست بجانبها

ـ مرمر !

وكمطشان عثر على الماء بحثت عن شفتيها ، دفعتنى وقاومتنى ولكننى كنت أقوى . وفجأة وجدتها ترتعد بين ذراعى ، وزفرات أليمة تلاحقت من صدرها وهى ترفع يديها لتخفى بهما دموعهما

ـ مرمر !

دموع غزيرة تسيل تحت يديها المرتعدتين ، وزفرات جريحة ملأتنى خزيا فابتعدت عنها

ـ آسف يامرمر . حقك على

شيئا فشيئا هدأت زفراتها ، وفى صمت مسحت الدموع عن عينيها وغطتهما بالنظارة السوداء . وكانت حزينة جدا رحلة العودة إلى المعادى حيث وقفت لأنزلها فى ذلك الشارع الجانبى الهادىء

ـ مرمر ، ماتزعليش منى

ـ موش زعلانة ولا حاجة

بصوت متحفظ وهى تنزل ، وبدون أن تلتفت إلى الوراء مشت مبتعدة تحت صف من الأشجار ، منتصبة القامة مرفوعة الرأس فى كبرياء جريحة ، التوى كعب حذائها مرة وهى تسير . فلعنت نفسى على جلافتى وذكرت فيلما عن فان جوخ ، بنفس الجلافة هاجم حبيبته وطفشها منه ، لو أن معى موسى لقطعت مثله أذنى



— ٥ —

فكم فرحت يوم رن صوتها فى التليفون هادئا طبيعيا وليس فيه كراهية ، بل فيه فرحة زادت من فرحى

— مانفسكش تشتغل مدرس ؟

— مدرس ؟

— آه ، واحدة ست دخلت المدرسة جديد ويلزمها مدرس

— حلوة ؟

— شوفها واحكم بنفسك

هنا وأكداس من الورق على حجرها ، وكتب انجليزية فى المحادثة والقواعد وحتى بعض قصائد شكسبير ، برنامج المدرسة الخاصة التى ألحقتها بها فيفى لتتعلم اللغة وبعد عام كما تزعم تصبح مضيفة مثلها .

— هى ح تتوسط لى عندها فى الشركة وانت لازم لك معارف

— وجوزك يرضى انك تطيرى ؟

— مانا ياخساره موش ح اطير . لازم اقعد مدة مضيفة أرضية

— برضه غريبة انه يرضى

— عمى ف عنيه ! لا يطلق مراته ولا يطلقنى ولا اشتغل كمان ؟

وكتلميذة صغيرة فتحت الكتب التى بدت لها أشبه بالألغاز ، وفى العيون السود تصميم رهيب على حلها لغزا لغزا . حدثتنى

النفس الشقية فى البداية بأنها حجة لتحضر عندى ، لكنى تبينت أنها تريد أن تدرس حقا . ساعات متوالية من العمل لا تتعب أبدا ، أحيانا هنا وأحيانا عند فيفى . معى بعقلها وليس ثمة ثغرة أنفذ منها الى قلبها ، بسرعة مذهلة تلتهم الدروس وتتقدم

— مش كفاية بقى يامرمر ؟

— إشتغل وانت ساكت ، آه !

ونظرة فى عينيها ذات معنى خاص تسكتنى ، ألست أنا المسئول عن حرمانها من دراستها ؟

— نفسى مرة آخذ اكسيلنت !

لأنها احتاجت الى أكثر من شهر لتأخذ درجة جيد ، ثم بدأت تأخذ جيد جيدا . هنا على هذه الكنبة التى أبكيتها عليها بجلافتى ، جلست عشرات الساعات أعلمها . دائما فى الصباح عندى وأحيانا فى المساء عند فيفى ، ولم أنجح قط فى اغرائها بشفطة بيرة واحدة .

لكنها ذات ليلة دخلت على بلا موعد سابق وفى العيون السود نظرة انتصار ساحق . من حقيبتها أخرجت كراسة فتحتها وضربت عليها بظهر يدها فى كبرياء

— إقرا يا أستاذ !

لأول مرة تنازلت ممز كولنز وخطت فى نهاية موضوع الإنشاء تلك الكلمة السحرية إكسيلنت

— والنبى انت نفسك ماتقدر تاخدها !

وجلست تقـرأ لى الموضوع كلمة كلمة ، ثم وضعت الكراسة ورفعت ذراعيها تتمطى

— أما انا بقى سعيدة بشكل !

ومالت برأسها ترمقنى بنظرة امتنان

ــ مرسى ياحمادة . تعبتك معايا قوى

فتنهدت

ــ تعبك راحة !

فابتسمت وحادت ببصرها نحو البار

ــ ويسكى ده ولا غلطانة ؟

ــ ويسكى

ــ عمرى مادقته

فخفق قلبى

ــ تدوقى ؟

ــ شفطة صغيره كده

فصببت الكأسين بيد ترتعد من توقع شيء جميل ، ورشفت مرمر رشفة وتأففت

ــ مر قوى !

ــ الترامايسين راخر مر

ونهضت مرمر بالكأس وقصدت إلى رفوف الكتب

ــ يابن الإيه ! قريت كل دول ؟

ــ تقريبا

ــ يابختك !

وبدا عليها أنها تريد أن تقول الشيء الذى أرجو ألا تقوله .

ونقيق ضفدعة فى الحديقة فقصدت إلى النافذة تطل عليها ، ثم استدارت ضاحكة وراحت تقلد صوت الضفدعة .

ــ ولو انه مر لكن لذيذ ! إملالى تانى !

ملأت لها وفى صدرى يعربد أمل وحشى ، ومعتمدة بكوعها على ركبتها رفعت الكوب يتمايل بجانب عينها التى انتشت .

ــ إكملنت يابنى ، إكملنت !

ونظرت إلى البيك آب عن يسارى فأشارت اليه

ــ ما تسمعنا حاجة

لحن راقص نهضت أميرة بالكأس وشرعت تتمايل عليه ، مبتعدة عنى حتى وصلت إلى ما وراء البار . وهنالك فى رف سفلى منه رأت شيئا سرها

ــ عسل ! عسل !

وانخفضت وراء البار تلتقط البرطمان ، انتظرت أن تبرز فلم تفعل

ــ ماتيجى تاكل !

فنهضت وقصدت إليها حيث تربعت على الأرض وراء البار ، البرطمان مفتوح وهى تدس فيه إصبعها ثم تخرجه لتلعقه ، منظر أثار فى نفسى ألف موجة حب

ــ مرمر !

ــ تدوق ؟

ورفعت نحوى إصبعا بللته بالعسل فذقت العسل وقبلت الإصبع.

وخافق القلب ركعت بجانبها ومددت شفتى أريد قبلة عسل .

ــ حاسب العسل !

لكننى نلت قبلتى وأحطت بذراعى كتفها ، فرحت بذلك الكتف البعيد الذى وثب إلى أعلا

ــ عارف احنا عاملين زى إيه ؟

ــ إيه ؟

ــ زى عيلين صغيرين مستخبيين !

ــ طب ما هو آه

ــ فاكر الصحارة ؟

ــ ولا ضرفة الشيش

ــ تيجى نستخبى تحت السرير ؟

ــ يالله !

وذكرت مرمر شيئا فضحكت ، أقفلت البرطمان ونهضت به

ــ ماتجيش ورايا . جايه تانى

سمعتها تغادر الصالة وتقفل على بابها ، عجبت أى أمر تدبر مرمر . هناك جلست كرجل فى حلم ، نقرت على أخشـاب الأرض وراء الباب خوفا من الحسد . وطرقة على الباب الذى أقفلته فنهضت وقصدت إليه بخطى نشوى ، فتحته عن ابتسامة العسل على وجه مرمر والبرطمان المقفل فى يدها

ــ جامد قوى ! تقدر تفتحه ؟!

حبيبتى مرمر ما أحلى قبلات العسل على صوت الصراصير فى ضوء القمر ، هنا حيث جلسنا أمام الشجرتين الحالمتين . ولأن الليلة كانت حارة أرحت الكأس على ركبتها العارية فانبسطت

ــ الله ساقعة وحلوة ! خليها شوية والنبى

ثم أشارت إلى الشجرتين الحالمتين

ــ حزر الشجرتين دول اسمهم إيه ؟

ــ غلبت حمارى

ــ واحدة مرمر والتانية حمادة

ــ عاشت الأسامى

ــ حزر مين دى ومين دى ؟

ــ دى مرمر ؟

ــ لأ دى

ــ ليه ؟

ــ شكل مرمر

ــ حمادة يحب مرمر

ــ ومرمر تحب حمادة

ثم ركزت على عينا قاسية ، عرفت أنهـا ستقول الشىء الذى لا أريد أن تقول

ــ دى عملة تعملها فى يامجرم ؟

فتنهدت فى استسلام .

ــ تطردنى من بيتكو يادون ؟!

ــ مرمر ! ماتفكرينيش

ــ تضيع مستقبلى يامجرم ؟

ــ اشتمينى كمان .

ــ ياسافل !

ــ كمان

ــ يامنحط !

ــ كمان

ــ يامجرم !

ــ قلتيها

ــ عمرى ما ح انساها لك أبدا . عمرى ما ح اسامحك !

لكنها سامحتنى ، هنا حيث ضممتها ونلت من الكتف البعيد وثبة . فى الضوء الخافت أمام الشجرتين الحالمتين ، قوسى نصر حول قمة الهرم الشامخ

-٦-

من وحى السماء هذا الأليجريتو من سابعة بيتهوفن ، كلمة من الله على لسان نبى النغم . الطرقات الجليلة المنذرة بشىء يخلق ، نبتة نادرة سوف تنبثق من جوف الأرض

ــ حقيقى حلو قوى

ــ طول عمرى نفسى اسمعه معاكى

هنا حيث جلسنا عقب أحد الدروس وهى لاتزال مرمر . زواج مقدس بين لحنين وإيقاعين ، يتداخلان ويتشابكان ويتجاوبان ويحتضران من لقائهما ألف نشوة . وهنا ــ هنا على هذه الكنبة رأيت النغم منعكساً فى عيون مرمر ، بين النور والظلال حيث ترقص نشوة الحياة فى العيون السود

ــ أحبك يامرمر ، أحبك !

ــ حبيبى

ــ تحبينى ؟

ــ قوى . قوى

العاطفة المشبوبة السائلة من الأوتار ، متدفقة إلى ذروة فى السماء من المتعة الخالدة . ثم تصمت الأوتار لتنطق آلات النفخ باللحن المنفرد ، شىء كالأنين فى ذلك اللحن الذى ولد آخر الأمر من الزواج المقدس

ــ موش عارفة البتاع ده ليه بيزعلنى

ــ حتى بعد إكسلنت ؟

ــ نفسى ابقى سعيدة كده زيك

ــ إنتى موش سعيدة ؟

ــ موش زيك طبعا . إنت موش متجوز

ــ ح تعملى إيه أكتر من انك تقولى له طلقنى ؟

فتصعبت بمرارة وشرد بصرها إلى مربع النافذة المظلم . ثم تنهدت ولوحت بيدها فى استخفاف مصطنع

ــ يالله !

ونهضت إلى برطمان العسل الذى تركته هناك فوق البار ، دست فيه إصبعها ثم أخرجه فلعقته . وفجأة ذكرت شيئا فضحكت

ــ إلا لو نبص نلاقيه داخل علينا دلوقت !

ــ أبوشنب ؟

ــ إف ! بطل الكلمة دى

ــ تفتكر يعمل ايه لو شافنا هنا ؟

ــ غالبا يعضنا

فضحكت مرمر ومددت أنا يدى فأدرت الإسطوانة من جديد

ــ عارف يعمل ايه ؟

ــ ههم ؟

ــ يحبسنا !

ــ واحنا بنعمل حاجة ؟

ــ هو كده غاوى حبس . لغاية دلوقت حابس اتنين خدامين كانوا عندنا . ياسيدى الحاجة اتسرقت وخلاص ، لكن مافيش فايدة

الطرقات الجليلة المنذرة بشىء يخلق



ـ ماتيجى تقعدى

فأتت وجلست مفكرة

ـ إحنا لو مسكونا تتحبس ؟

ـ يتوقف على مسكونا بنعمل ايه

ـ كام سنة ؟

ـ مدة لا تزيد على سنتين مادة ٢٧٤ معدلة

فضحكت

ـ إنت حافظ قانون كمان

ـ الواحد قبل مايحب لازم يدرس قانون عقوبات ! واسكتى بقى خلينا نسمع

فأنصتت حينا إلى الزواج المقدس بين لحنين وإيقاعين ثم توترت فجأة

ـ إيه ده ؟

ـ إيه ؟

مرهفة السمع أشارت نحو مربع النافذة المظلم

ـ سامع حاجة ؟

صوت صفير الصراصير فى ليل الهرم

ـ لا ، صوت حركة

ـ يمكن كلب ولا حاجة

ـ قوم شوف والنبى

ـ ماتبقيش خوافة

ـ قوم عشان خاطرى

لكننى لم أكن بحاجة لأن أقوم ، بسبب ذلك الشىء الغريب الذى تراءى فجأة فوق حافة النافذة أمامنا . شعر أسود على رأس رجل ،

ثم جبينه الأسمر ثم عيناه ، ثم أنفه وتحت الأنف أكبر شنب رأيته فى حياتى . عيناه السوداوان حين رآنا عينا رجل مجنون ، وبطرف لسانه نبذ شعرة . شهقت مرمر وتجمدت أنا ، ساورنى شعور رجل ينظر إلى أرض الطريق وهو يهوى نحوها من نافذة الطابق العاشر . فهى إحدى غرائب النفس البشرية ، أننى أستطيع اليوم أن أسترجع المنظر بهذا الهدوء ، كالمؤرخ الذى يقول أنه فى سنة كذا قامت الحرب الفلانية وقتل فيها مليون إنسان

قفزة سريعة رفعت أبا شنب فوق النافذة ، وأخرى أنزلته على أرض الصالة هنا . هنا عند النافذة وقف أمامنا يلهث ويغرقنا بنظرات مسمومة من الحقد الأسود ، لا يقول شيئا ولكنه فى صمته يقول كل شىء . كقطعة من الخشب جلست مرمر بجانبى ، لمحت بطرف عينى يدها وقد تقبضت ترتعد . بل يخيل إلى أننى سمعت صوت اصطكاك أسنانها ، ولا أدرى لماذا ظللنا جالسين . فى صمت أبله ننظر إلى أبى شنب حيث وقف أمامنا كالتمثال ، على صوت اللحنين المتجاوبين اللذين يعتصران من لقائهما ألف نشوة . وفجأة تحرك التمثال الأسمر ، ببطء أول الأمر ثم بسرعة — بسرعة البرق رأيته ينقض على مرمر ويجذبها من صدر فستانها ، خلعها عن هذه الكنبة خلعا . صفعات كالمطر ولكمات تنهال عليها ، مرمر تصرخ صرخات مكتومة كالعواء وأنا جالس أتفرج . لابد أن طنا على الأقل من الأدرينالين تدفق فى عروقى قبل أن أرتفع الى مستوى الموقف . فوثبت إلى الرجل الأسمر وجذبته من ياقة جاكتته ، طوحته بكل قوتى فترنح وارتطم بالنافذة التى دخل منها . مكث هناك لحظة ثم انقض على وأطبق باليدين على صدر جاكتتى ، عيناه فى عينى وشنبه يكاد يلامس وجهى . يلهث ويتأملنى بنظرة

حقد رهيب ، فاغرا شفتيه عن أسنان مطبقة لوحش كاسر . وفجأة رفع قبضته اليمنى ليصوب نحو وجهى لكمة ، حاولت أن أتحاشاها بساعدى ولكنها كانت لكمة ثور . مثل كتلة من الصخر هوت قبضته على فكى حاملة كل مافيه من حقد وغل ، أظلمت الدنيا أمام عينى ووجدتنى أهوى على الركبتين . ومن خلال غشاوة على بصرى رأيته يستعد لرفصة بالحذاء فأسرعت بتغطية وجهى لأتلقاها على ساعدى . لكن الصدمة زلزلتنى وسقطت على الأرض ، وكرجل فى كابوس راقبت كل ماجرى بعد ذلك فى الصالة .

من خلال تلك الغشاوة رأيت مرمر شبحا هلاميا أبيض يحتمى بعيدا خلف البار ، وأبو شنب هو الآخر مجرد شبح أسود . وقف حينا يفترس زوجته بالنظر ثم وصفها بكلمة بذيئة . وتلفت حوله ثم اتجه إلى هذا التليفون هناك وتناول الدفتر يبحث عن رقم ما . خرفشة الورق وصلتنى عالية غريبة ، وصوت الصراصير مع العاطفة المشبوبة المتدفقة من الأوتار . ووجد الشبح الأسود طلبه فاتجه إلى التليفون ورفع السماعة ، لا أدرى لماذا بدت لى كل حركاته بطيئة لزجة كأنها فيلم بالعرض البطىء

— آلو ، قسم الهرم ؟ أفندم ؟ متأسف

وصوته أيضا رن فى أذنى بعيدا مجوفا مثل رجع الصدى ، أمجنون هو حتى يثير فضيحة ؟ فبينما هو يطلب الرقم من جديد عاد يفترس بالنظر مرمر

— فى السجن يا ... !

ثم التفت نحوى أنا

— فى السجن يا إبن الكلب !

فعرانى مايصيب الرجل فى الكابوس ، من رغبة رهيبة فى النهوض

وعجز أليم عنه

ــ فى السجن يا أوباش ! يا غجر ! يا لمامة !

ورفع السماعة للمرة الثالثة .

ــ آلو ، قسم الهرم ؟ حضرة المأمور موجود ؟ يوسف جاد الله .

فدهمنى إحساس رهيب بالضياع ، ودوت فى أذنى صرخة ضارعة من مرمر

ــ محمود ! أبوس إيدك يا محمود !

صوتها متهدج يقطر ذلة ورعبا

ــ محمود ! محمود !

ــ آلو ؟ طيب ، أنا معاك

وخيم صمت عميق إلا من صوت الصفير ، وأنين بعيد للحن الذى ولد آخر الأمر من الزواج المقدس . وهناك وراء البار رأيت الشبح الأزرق المرتعش يمد يده نحو برطمان العسل ، يد مترددة مالبثت أن أطبقت على البرطمان . وببطء كما فى العرض البطىء بدأ البرطمان يرتفع إلى أعلا ، وفجأة طار عبر الصالة وصوت صدمة شديدة وزجاج يتحطم . ومن خلال الغشاوة على عينى رأيت الشبح الأسود يرفع يده يتحسس بها رأسه ، وفجأة ترنح واستند على الحائط . ظل حينا يترنح ثم أخذ ينزلق نحو الأرض شيئا فشيئا ، مالبث أن تكوم بجانب الحائط كتلة ساكنة سوداء . ومن وراء البار خرج الشبح الأزرق متسللا ، تقدم من الكتلة السوداء ووقف ينظر إليها فاحصا . صوت لهاث مرمر مع صوت الصفير ، وخرفشة بعيدة للإبرة على الإسطوانة التى انتهت

ــ ٧ ــ

تقول مرمر أننى غبت عن الوعى ساعة ، لكننى لم أعد أصدق مرمر فى كل ما تقول . كرجل يخرج من الظلام من جوف بئر عميق ، شيئا فشيئا زالت الغشاوة عن عينى وبدأت أميز الأشياء . مرمر متربعة هناك على الأرض بجانب جثة زوجها ، معتمدة بكوعها على ركبتها وبذقنها على راحتها تصوب إلى الأرض نظرة فارغة . وصوت خرفشة غريبة تبين لى أنها للإبرة على الإسطوانة التى ما برحت تدور بلا مناسبة

ــ مرمر !

فالتفتت نحوى فى غير اكتراث كأنما كنت نائما وصحوت ، وفى عينها اليسرى رأيت ذلك الحول وقد صار سافرا صريحا . شاحبة الوجه زائغة البصر أشارت نحو زوجها

ــ باينه مات !

ــ هه ؟!

ــ قوم انت اتأكد .

فلا بد أننى احتجت إلى طن آخر من الأدرينالين لكى أنهض واتجه إلى الرجل ، بخطوات لزجة فوق العسل المكسوب وشظايا الزجاج تخرفش تحت حذائى . تحسست نبضه فلم أجد له نبضا ، ووضعت أذنى على صدره فلم أسمع لقلبه صوتا . فلما وضعت مرآة مرمر

أمام أنفه لم تغم ، أى أنه قد مات إذ صح ما أقرؤه عن هـذه الأشياء فى الكتب

ــ باقول لك مات !

ببساطة وهى ترفع إصبعا تدعك به عينها الحولاء ، وخيم صمت إلا من صوت الصراصير فى ليل الهرم . وتلك الخرفشة للإبرة على الإسطوانة لماذا لا يسكتها أحدنا ؟ لماذا وكيف ومتى وأين وإلام وألف ألف علامة استفهام تتلاطم فى عقلى ، فنهضت فى صمت وأقفلت شيش النافذة . شىء واحد وضح فى ذهنى وهو أن مرمر يجب أن تختفى من هنا بسرعة ، فأى نفع يعود على البشرية من عقابها على جريمة لم تقصدها ، أو عقابى أنا على جريمة لم أشترك فيها ؟

ــ مرمر ! قومى خدى عربيتى وامشى من هنا

فواجهتنى بعين حولاء وبلهاء أيضا

ــ أروح فين ؟

ــ عند فيفى

ــ أعمل ايه ؟

ــ تستخبى

ــ من إيه ؟

ــ اللى يقتل الناس يستخبى من مين ؟

ــ ونا قتلته بكيفى ؟

ــ مرمر ! قومى حالا ، ماتضيعيش الوقت .

ــ وانت ح تعمل إيه ؟

ــ لسه موش عارف

ــ واشمعنى عربيتك ؟

ــ مرمر ! بلاش دوشة !

لكنها ظلت واقفة تحملق إلى بأبله عين حولاء ، لم تتحرك إلا عندما دفعتها إلى الباب دفعا . خرجت وسارت خطوتين ثم ارتدت وقد ذكرت أمرا

ــ طب اسمع !

ــ أفندم .

ــ ماتنساش تشترى برطمان تانى !

ــ هه ؟!

فبدا عليها أنها تستهجن بطئى فى الفهم ، وأشارت إلى الزجاج المبعثر على الأرض

ــ بدل اللى انكسر ده !

فندت منى ضحكة وحسدتها على هذه الروح الفكاهية العالية التى تقابل بها الموقف . لكنها فيما يبدو لم تكن تنكت بدليل أنها لم تضحك ، وفى صمت خرجت وتركتنى مع خرفشة الإبرة على الإسطوانة التى انتهت . برطمان عسل ثان ؟! أفلا يكفينا كل هـذا العسل الذى يغطى أرضنا ؟ سأتعب قطعا فى مسح هذه الأرض ، وسماعة التليفون السـاقطة لماذا لم تردها مرمر لمكانهـا ؟ الإبرة والسماعة وإذا لبست الجوانتى فلن أترك بصماتى فى سيارته . وفى مدينة المقطم ما الغرابة فى أن تنقلب سيارة إنسان عند منحنى خطير ؟ حادث مروع فى المقطم ، سيارة تسقط وتحترق عن آخرها ، ومصرع رجـل من الأعيـان هو محمود جاد الله . فى الأفـلام رأيت مثل هذه الأشياء فلماذا أفترض انهـا فبركة من المخرجين ؟ وهذه الأرض أمسحها مسحا جيدا يزيل كافة آثار الزجاج والعسل ، والحديقة أرشها حيث تسللت أقدام الرجل

كم ارتعدت يدى وأنا أمدها نحو وجه الرجل بالفوطة المبللة ، مسحت عن جبينه دماء قليلة فأغلب الظن أنه مات بارتجاج فى المخ . واقشعر بدنى وأنا أمسح العسل عن شنبه الكثيف الأسود ، فى السجن يا أوباش . وعلى الجاكتة بقعة عسل فيجب أن أخلعها عنه قبل نقله إلى السيارة ، أليس ممكن ألا تحترق به تماما كما يقول المخرجون ؟

وفجأة تجمدت من الرعب ، وأظن أننى شهقت أيضا . عندما بدأ رأس الرجل يتحرك أمامى ، وبدرت منه أنة خشنة مثل حيوان جريح يزوم . ثم تقلصت جفونه فى محاولة لفتح عينيه ، بصعوبة فتح عينا واحدة وبقيت الأخرى مختومة بالعسل . وبصعوبة مماثلة باعد بين شفتيه الملتصقتين وبطرف لسانه دفع شعرة . بعينه الواحدة راح يتفحصنى ويتذكر من أكون ، مثل اكائن نزل من كوكب آخر . ثم فتح الأخرى وراح بالعينين يحملق إلى ويتذكر ، سرعان ما فاضت عيناه بحقد رهيب . تحامل لينهض فسبقته بالنهوض ووقفت متحفزا ، فى حجرتى خشبة كبيرة من بقايا نجارة تنفعنى إذا طلب العراك . معتمدا بيديه على الأرض وسط العسل وشظايا الزجاج ، جاهد الرجل حتى استوى جالسا . ثم نظر إلى يديه وإلى الفوطة التى تركتها بجانبه ، تناولها وشرع ينظف يديه ثم رفع يديه الى وجهه يتحسسه ، وبالفوطة بدأ يمسح وجهه .

وفى صمت تحامل على نفسه ونهض ، وقف أمامى يرمينى بنظرات متعبة أكثر منها كارهة

ــ الحمام فين ؟

فأشرت إلى الباب فى الممر القريب ، ترنح خطوتين ثم اعتدل وسار . صوت الماء فى الحمام ويجب أن أجد شيئا بليغا أقوله له

عندما يعود .

ــ يا أستاذ جاد الله ! انا وأميرة بنحب بعض واحنا أد كده هه ! أد كده هه والله !

فوقف صامتا يستوعب كلامى وبلسانه دفع شعرة .

ــ وسيادتك اتجوزت عليها ! سايبك رجعتها بالعافية ! ومانتش راضى تطلقها !

أردت أن أقول له وبتمضها لكننى أمسكت

ــ إعتقها لوجه الله ينوبك ثواب !

فما نطق بحرف حيث وقف هنا والفوطة متدلية من يده ، فى صمت ينظر إلى ويكرهنى

ــ هى خدت العربية ؟

ــ لأ

ــ راحت فين ؟

ــ الله أعلم !

فتردد لحظة ثم ألقى بالفوطة على الأرض واتجه الى الباب ، وصوت هدير الموتور للسيارة التى تبتعد . أيذهب الى البوليس ؟ فما فائدة الفضيحة فى جريمة لا يمكن إثباتها ؟ ويجب أن أنبه فيفى إلى أن لا تفتح له الباب إذا راح هناك

لكن التليفون رن من قبل أن ألمسه ، وكان صوت فيفى شديد الاضطراب

ــ أستاذ حمادة ! تقدر تيجى حالا ؟

ــ ليه ؟

ــ مرمر ! موش عارفة مالها !

ــ مالها ؟

— موش قادرة اتكلم دلوقت ! أرجوك تيجى

قطعت هذا الشارع المظلم الطويل على القدمين قبل أن أجد تاكسيا فى شارع الهرم . ضغطت الجرس ففتحت فيفى وبدلا من أن تدخلنى خرجت إلى تمطرنى بالأسئلة

— هى كانت عندك الليلة ؟ وإيه اللى حصل ؟ جرى لها إيه !

فدهشت

— ماقالتلكيش حاجة ؟

— مابتتكلمش خالص ! مانطقتش بحرف ! دى جرى لعقلها حاجة !

على ذلك المقعد الكبير فى صالون فيفى ، متهدلة عليه أكثر منها جالسة ، شاحبة الوجه غائرة الخدين كأنها مريضة منسنة . منكوشة الشعر حولاء ، يداها مقلوبتان على حجرها وساكنتان كأنها نسيتهما هناك

— مرمر ! إفرحى جوزك ماماتش !

فرفعت إلى عينا حولاء غير فاهمة ، ثم حادت ببصرها إلى فيفى مستفسرة

— ماماتش يامرمر ! كان دايخ بس . غسل وشه وخرج زى العفريت !

فى صمت راحت تنظر إلى نظرة جوفاء ، وفجأة رأيت ذقنها ترتعد كطفلة ستبكى . ودموع طفرت من عينيها وبدأت تبكى ، بصوت جريح تولول وتضرب بقبضتها على فخذها

— دبحوه يافيفى ! دبحوه !

فتبادلت وفيفى نظرات دهشة وفزعة

— دبحوه ولاد الكلب ! دبحوه !

— مين هو يامرمر ؟

تعاسة الدنيا كلها فى عينها الحولاء ووجهها الغارق فى الدموع ، بقبضتها تدق على ركبتها وتولول

— ليه يدبحوه ؟ ليه ؟

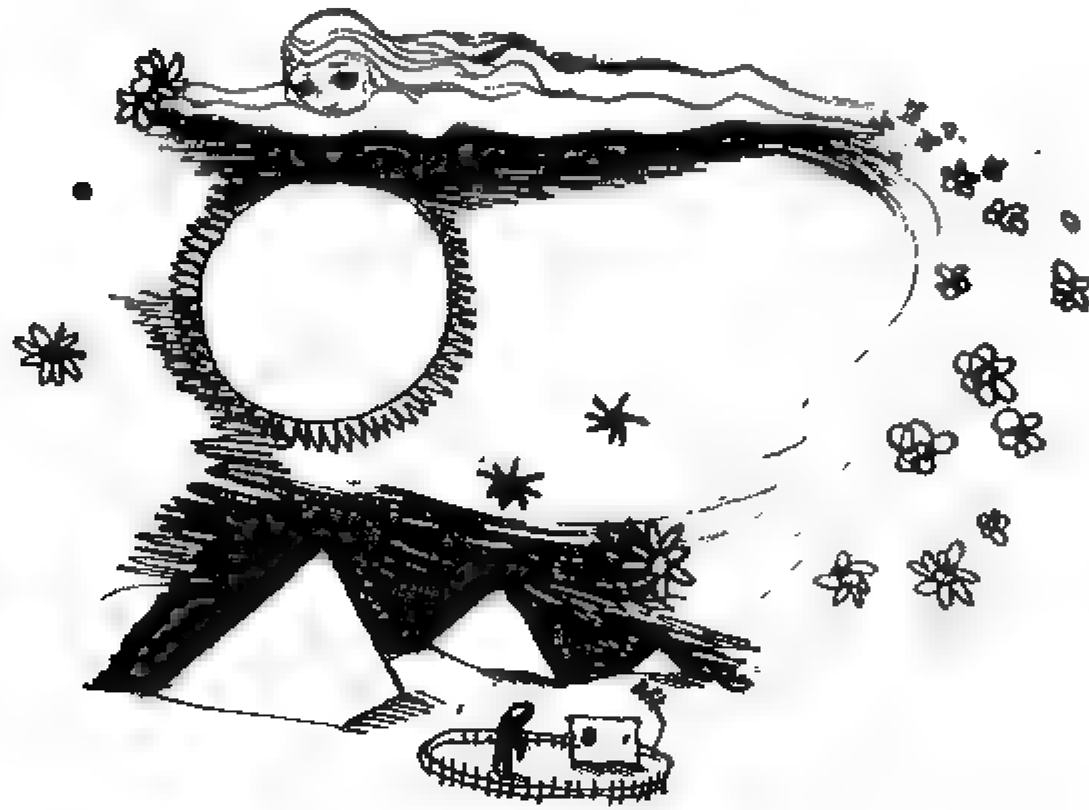
— مين يامرمر ؟ مين ؟

— الجمل الصغير الحلو !

— مافيش جمال اندبحت يامرمر

— دبحوه يافيفى ، دبحوه ! الجمل الحلو ابو شعر منكوش ! ليه يدبحوه ؟ ليه ؟ ليه ؟

وبينما نظرت إليها تدق على ركبتيها وتبكى فاضت نفسى حسرة ، وفى وسط حسرتى ذكرت اسم الدكتور أمين لطفى



- ٨ -

طويل نحيل كحبل الغسيل ، عرفته بنفسى وبمهنتى فلم يبد أى نوع من الاحتفال كأنه لايقرأ الصحف . صافحنى بيد طرية مثل بطن الضفدعة ، وعلى سبيل الابتسام تقلصت زاوية فمه مثل رجل قرفان . تهدج صوتى وأنا أحكى له مأساة مرمر فما اهتزت فيه شعرة ، كأنه من روتين الحياة أن تقتل الزوجة زوجها ثم تجن

ـ بدل ماتتعب نفسك ماتجيبها هى تحكى بنفسها ؟

ـ أنا حبيت أدى لك فكرة عنها مقدما

فتقلصت زاوية فمه

ـ المريض دايما عنده فكرة أحسن عن نفسه . يوم الاتنين الساعة خمسة كويس ؟

ـ موش ممكن قبل كده ؟

ـ هى بتعمل حاجة غير انها ناسية ؟

ـ لأ

ـ خلاص

فكرهته من البداية ولكن ما باليد حيلة . فى صالون فيفى جلست مرمر واجمة ، منكوشة الشعر مكدسة فى المقعد الكبير . خشيت أن تبكى من جديد على الجمل الذبيح ولكنها لم تفعل ،صامتةتفكر فى أشياء لايعلمها الا الله . أحيانا ترتسم على شفتيها بسمة متقلصة

مثل بسمة الدكتور ، وأحيانا تهز رأسها موافقة على أشياء لم ينطق بها أحد . ثم ركزت بصرها على ومالت على فيفى هامسة بشىء لم أسمعه ، علمت فيما بعد أنها تسألها من أكون

ـ قلت لها ده واحد قريبى !

فقالت لها أنها لا تعرف بمن أذكرها ، وبالنسبة لزوجها زعمت أنه مسافر ولا تعرف متى يعود . لكنها لحسن الحظ لم تنس الأشياء اليومية الصغيرة ، تزينت قبل الخروج بدون عون من فيفى وأصرت على أن تستعير منها شراب كاروهات .

إذ جلست تدعك عينيها الحولاء وتقول أنها تحرقها ، ثم نظرت فى المرآة فشهقت أنا حولة ! وأصرت على أن تذهب الى طبيب العيون عصر اليوم

ـ تيجى ناخدها للدكتور أمين على إنه حكيم عينين ؟

لكننى لم أنجح قط فى أن أحتكم على هذه القدرة الأنثوية فى الخداع

ـ وليه ماناخدهاش لحكيم عينين ؟

أوحيت له مقدما بأن يقول لمرمر أنه حول يرجع لأسباب نفسية ، وبعد الكشف قال لى إنتى ماكنت بحاجة إلى ذلك الإيحاء . وعلى سلم عمارة الطبيب النفسانى كرهت إعجابى بالسيقان الأربع التى تصعد السلم أمامى ، ولم تنجح المرأتان فى أن تستخلصا من الرجل الثلجى سوى تلك البسمة المتقلصة للرجل القرفان . جلس مقابلا بين أصابعه العشر يقلب النظر بيننا ويخصنى وفيفى بنظرة ازدراء

ـ تتفضلوا انتم فى الأودة التانية ؟

وهناك فى حجرة الانتظار جلسنا نكرهه فى صمت ، ونكاية فيه فعصت فيفى عقب سيجارتها على الأرض

ــ دمه يلطش !
فتنهدت
ــ الداهية انه دكتور كويس
ــ أما نشوف .
وتابعت عينها نحو تلك اللوحة المعلقة على الحائط وقد خطت عليها حكمة لفرويد
ــ تطلع إيه دى ؟
حيث كانت الهى هناك الأنا سـوف يكون ، شرحتها لها قـدر استطاعتى وتظاهرت هى بالفهم
وبعد ساعة بالدقيقة دعانا المسـاعد للدخول حيث رأيت مرمر جالسة تجفف بالمنديل دمعة فى عينها الحولاء
ــ يوم الخميس الساعة خمسة
تركت المرأتين تخرجان وبقيت معه لأسأله سؤالين :
ــ إزى حالها يادكتور ؟
فتقلصت زاوية فمه
ــ تعبانة !
فاغتظت .
ــ مانا عارف انها تعبانة ، إمال جايبها لسيادتك ليه ؟ قصدى يعنى فيه أمل ؟
ــ دايما فيه أمل
وبسط بطن الضفدعة نحوى فتجاهلتها
ــ إيه رأى سيادتك فى إننا نحكى لها كل اللى حصل
ــ موش ح تصدقكم
ــ واحنا ح نكذب عليها ليه ؟

ــ ده منطق سيادتك . هى ناسية ليه ؟
ــ ليه ؟
ــ لأنها عايزة تنسى !
ــ يعنى مانقولهاش ؟
ــ على كيفكم
ومن جديد بسط نحوى بطن الضفدعة فتناولتها متقززا . خرجت ألعن أباه ، وفى مرآة السيارة رأيت ابتسامة تتلاعب على وجه مرمر
ــ والنبى دمه خفيف !
ــ بس اسمعى كلامه بقى عشان تخفى
ــ أسمع كلامه ف إيه ... هو قال لى حاجة ؟ دنا اللى طول الوقت اتكلم !
وضحكت ضحكة جافة ثم ركزت عينها على قفاى
ــ موش قادرة اعرف قريبك ده بيفكرنى بمين !
ثم دعكت عينيها الحولاء وسرحت ببصرها إلى الطريق . حبيبتى مرمر ، أتكونين قد لقيت مصيرا أسوأ من السجن ؟ وثلاث جلسات فى الأسبوع وكل واحدة بجنيهين ، بارك الله فى الرفاق الذين علموا بالمحنة فاكتتبوا فيما بينهم وأقرضونى مائة جنيه
ومن مصر الجديدة بعد أيام رن صوت فيفى وكانت فيه نبرة ساخرة ، عن ورقة الطلاق التى وصلت على البيت مع عسكرى
ــ لو م الاول ابن الكلب موش كان وفر علينا كل ده ؟
وأنا الآخر فاضت نفسى حسرة
ــ الله يخرب بيته !
ــ وبيت أبوه يارب !
ثم تطرقت الى صوت فيفى نبرة مرحة



ـ المهم موش كده بقى ... عارف مرمر عايزة إيه ؟
ـ خير
ـ عايزة تيجى تزورك !

فخفق قلبى أملا

ـ هى افتكرتنى ؟
ـ ياريت .. برضه فاكراك قريبى
ـ امال عايزه تزورنى ليه ؟
ـ أنا عارفة ؟ يظهر انك عجبتها !
ـ ده يدل على إنها موش مجنونة زى ما احنا فاهمين ..
ـ بقى كده !
ـ طب نسأل الدكتور
ـ ما انا سألته قال على كيفها ..

فى حياء دخلت مرمر وراء فيفى وبهية من يدخل البيت للمرة الأولى ، على هذه الكنبة جلست صامتة تحملق بعينها الحولاء إلى مربع النافذة المظلم ، تبادلت وفيفى نظرة متفاهمة ورحنا نختلق الموضوعات للثرثرة ، وهى صامتة عازفة عن الكلام

ـ مالك يا مرمر ؟
ـ بردانة !
ـ فى الحر ده ؟
ـ بردانة قوى !

ورفعت ذراعيها تغطى صدرها وكتفيها ، ترتعـد بقوة وكدت أسمع صوت اصطكاك أسنانها

ـ يالله يا فيفى !
ـ يالله إيه ؟

ـــ نروح !

ـــ على طول كده ؟

ـــ يالله يا فيفى !

ونهضت وهى ترتعد ، أسرعت نحو الباب وهى تتلفت وراءها فى فزع ، خرجت دون أن تحيينى وفيفى وراءها بعد أن نظرت نحوى وبسطت حولها ذراعين حائرين . كرهت الدنيـــا ليلتها ولم أنم إلا بعد أن سكرت طينة

لكن صوت فيفى رنّ من جديد مرحا

ـــ برضه عايزة تيجى تزورك !

ـــ تانى ؟ !

ـــ أيوه ..

ـــ وبرضه موش فاكرانى ؟

ـــ أبدا

ـــ اشمعنى فاكراكى انتى ؟

ـــ أنا عارفه ؟ لا وبتقول لى إيه ؟

ـــ إيه ؟

ـــ عايزانى اقعد معاكو شوية وبعدين اشوف لى حجة واقوم !

ـــ يانهار اسود !

هنا كان لا مفر من استشارة الدكتور ، وكان صوته كالمعتاد مثلجا

ـــ هو سيادتك خايف تقعد معاها لوحدك ؟

ـــ موش خايف ، بس هى فاكرانى واحد تانى !

ـــ طيب وإيه يعنى ؟

ـــ أقعدها لوحدها مع راجل غريب ؟!

ـــ سيادتك عايز تفهمنى انك غاير من نفسك ؟ !

ـــ لأ بس خايف عليها ..

ـــ من إيه ؟

ـــ افرض كده ولا كده ..

ـــ فرضنا

ـــ هى مراتى ؟

فلا بد أن فمه تقلص بابتسامة القرف

ـــ وهى قبل كده كانت مراتك ؟

فأفحمنى قوله وسكت

ـــ الغريبة اللى يقره كتابة سيادتك يفتكر حاجه غير كده خالص

ـــ إزاى يعنى ؟

ـــ يعنى بحبها شوية

وأقفل السكة وتركنى أغلى

وبنفس الحياء دخلت مرمر وجلست هنا صامتة ، أنا وفيفى نثرثر وهى تختلس نحوى نظرات غريبة صامتة ، وفجأة تراءت فى عينها الحولاء نظرة ماكرة وهى تشير نحو البار .

ـــ ده ويسكى ولا انا غلطانة ؟

ـــ ويسكى .. ليه ؟

فضحكت ضحكة جافة

ـــ تدوق ؟

ـــ بلاش أحسن

فبدت فى عينها نظرة شخص أهين وأشاحت بوجهها ، وتنهدت أنا وتناولت سماعة التليفون . مرمر لا تعرف الفرنسية فيمكننى أن أستشير الطبيب بلا حرج

ــ لامؤاخذة على الازعاج بس فيه حاجة جدت .
ــ أفندم ؟
ــ عايزة تشرب ويسكى
سكتة قصيرة ليتقلص فمه طبعا
ــ سيادتك عندك ويسكى ؟
ــ أيوه
ــ يعنى سيادتك بتشرب ؟
ــ أيوه
ــ طب ليه هى ما تشربش ؟
ــ سيادتك عارف
ــ مجنونة يعنى ؟
ــ أظن كده
ــ وسيادتك عاقل ؟
ــ المفروض !
ــ طب موش غريبة شوية ان العاقل يشرب والمجنون مايشربش؟!
وأقفل السكة وتركنى من جديد أغلى ، مائة فى المائة هو يريد أن أفقد عقلى كى يكسب زبونا جديدا !
من شفتطين دارت رأس مرمر وراحت تحكى لنا عن كلب أسود عضها فى كتفها ذات يوم ، وقبل أن ينفذ الكأس كانت قد سكرت ، ضحكت فجأة وصرخت تخاطب فيفى
ــ فيفى ! إنتى نسيتى ولا إيه ؟ !
فنهضت فيفى وهى تنظر فى ساعتها
ــ آه والله صحيح ، برافوا اللى فكريتنى ! عن إذنك يا أستاذ حمادة ... مشوار صغير وراجعة على طول !

ووحدى مع مرمر ركبنى ذعر صبيانى ، على صوت الصراصير المنبعث من هذا المربع المظلم . هنا حيث جلسنا وهى مطرقة بوجه متورد ، وبين حين وآخر ترفع نحوى عينا متسللة باسمة حولاء .
وفجأة ضحكت فيفى بخبث
ــ يا ترى فيفى وراها إيه ؟
فأردت أن أضربها ولكننى تنهدت
ــ لازم شغل ولا حاجة
فضحكت مرمر من جديد ، حتى فى جنونهن يحببن الخداع
ــ نفسى فى حاجة حلوة
ولعقت شفتيها بلسانها وتلفتت حولها باحثة ، فتذكرت العسل الذى كنت قد اشتريته على سبيل الاحتياط . أحضرت لها البرطمان الذى فتحته ثم نظرت إلى فى حيرة
ــ من غير صحن كده ؟
ــ آه لا مؤاخذة !
سبحان مغير الأحوال ، قصدت إلى المطبخ لأحضر الصحن وفى طريقى سمعت نداءها
ــ ولقمة والله يا أستاذ حمادة !
فضحكت وشر البلية ما يضحك ، وعدت بالصحن لأجد أنها لم تعد فى حاجة إليه . متربعة على الأرض بجانب البار والبرطمان فى يدها ، تصب منه على الأرض شريط عسل وتحركه فى دوائر كى تحوله الى بحيرة صغيرة من العسل!
ــ مرمر !
فنظرت إلى فى استغراب لأننى ناديتها باسم الدلع
ــ أميرة هانم ! الصحن آهه

فلوحت بيدها مستهترة

ـ بلا صحن بلا دوشة !

وبللت إصبعها من العسل المسكوب ولعقته

ـ ومع ذلك ناخد لقمة !

وتناولت الرغيف وقطعت منه لقمة غمست بها من على الأرض . مطرقة تاكل ومن حين لآخر تتسلل نحوى بتلك النظرة الماكرة ، ومع نظرتها تبتسم وترفع كتفيها حول عنقها . مزيج من الرثاء والغيظ يحتدم فى نفسى ، إحساس أليم بهذا التناقض التعس بين المهزلة والمأساة . نعم هى لقيت مصيرا أسوأ من السجن ، لعنة الله على من كان السبب

وأنهت مرمر وجبتها فمسحت يدها فى ذيل فستانها ونهضت تتجشأ . وعلى استحياء أتت وجلست بجانبى هنا ، وقع بصرها على البيك آب عن يسارى

ـ ما تسمعنا حاجة

الاسطوانة موضوعة هناك من يومها ، أدرتها عن الطرقات الجليلة المنذرة بشىء يخلق . أصغت مرمر صامتة تستوعب اللحن وبينما تصغى تحملق نحو ذلك المربع المظلم . ما أتعس مرمر حيث تحملق إلى النافذة كالبلهاء ، وما أتعس العاطفة التى ثارت فى نفسى فجأة وأنا أتأملها

ـ مرمر !

فنظرت إلى متسائلة :

ـ مرمر حبيبتى ! ليه موش عارفانى ؟ ليه ؟

فبدت عليها الدهشة ثم تضاحكت فى أدب

ـ ازاى موش عارفاك يا أستاذ حمادة ؟!

ـ أصلى موش أستاذ ! أنا حمادة بس !

ومددت يدى فتناولت يدها ، جذبتها أول الأمر ثم استسلمت ، بوجه متورد لبنت تسلم يدها للمرة الأولى ، رفعتها إلى فمى وقبلتها ، ومرمر مطرقة بوجهها المتورد . ورفعت ذراعى أحطت به كتفيها ، ما أتعس ذلك الكتف البعيد الذى وثب

ـ إنت بتحبنى ؟

ـ قوى يا مرمر !

ـ وانا كمان يا أستاذ حمادة !

وما أتعس ذلك الأنين فى اللحن المنفرد للطفل الذى كان يمكن أن يولد من الزواج المقدس

ـ مرمر !

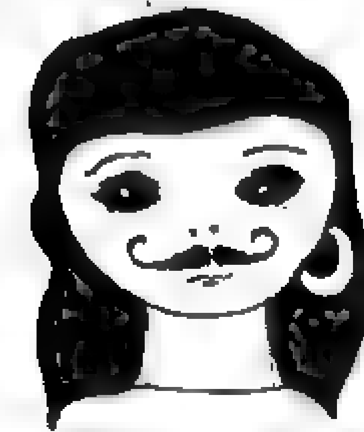
لكن مرمر شهقت فجأة وتصلبت ، تابعت نظرتها إلى النافذة فوجدتنى أنا الآخر أشهق . العينان السوداوان البراقتان فى رأس الكائن الرابض هناك فوق حافة النافذة ، نظرات حادة مجنونة تخلعت قلبى قبل أن أتبين أنها نظرات ضفدعة . أكبر ضفدعة رأيتها فى حياتى ، فلست أدرى كيف نجحت فى القفز إلى حافة النافذة . لكن مرمر لم تتبين ما تبينت ، ورعب الدنيا كلها تجمع فى عينيها . متوترة تحملق إلى الضفدعة كأنها عفريت ، ونهضت فجأة فتعثرت فى هذه الترابيزة وسقطت

ـ ماتخافيش يا حبيبتى ، دى ضفدعة !

فما أظنها سمعتنى ، حيث بدأت تزحف على الأرض نحو البار ، متلاحقة الأنفاس بما يشبه الحشرجة . لم تنزع بصرها عن الضفدعة لحظة واحدة ، وبيدها راحت تتحسس على الأرض باحثة عن شىء ما . كان برطمان العسل على الأرض حيث تركته هناك ، أصابته

يدها وقلبته ثم عدلته دون أن تنزع بصرها عن الضفدعة . ثم رفعته الى أعلا وكان مفتوحا فسال منه على كتفها شريط عسل ، وبكل قوتها طوحته نحو النافذة قذيفة صاعقة . جرف البرطمان الضفدعة وطارا في الظلام ، تستطيع حبيبتي لو شاءت أن تكون بطلة بيسبول

هناك على الأرض رأيتها فجأة ترفع يديها لتغطي بهما دموعها ، ثم مالت على جنبها وعلت منها تلك الزفرات كالحشرجة. على الأرض تبكي وتتلوى ، ثم رفعت قبضتيها مضمومتين في أعلا ساعدين يرتعدان . وفجأة تراخى الذراعان وسقطا حولها على الأرض بصدمة ، سكنت حركتها ولولا الصدر الذي يعلو ويهبط لقلت أن حبيبتي ماتت



- ٩ -

على السرير في المستشفى تحت الملاءة البيضاء ، ما زال صدرها والحمد لله يعلو ويهبط : لكنني من الأعماق كرهت حبل الغسيل حيث جلس ينظر إليها في برود ، ساق على ساق والعليا تتدلى حتى تلامس الأرض . بعينين كسولتين يراقبها وابتسامة القرف على شفتيه ، بينما نزع الطبيب الآخر ذو البالطو الأبيض سماعته عن أذنيه

ــ ما فيش خطر ، قلبها كويس جدا

وابتسم عن سنة ذهبية وخرج ، وعبر السرير جلست فيفي تعض إصبعا عصبيا صغيرا

ــ آدي آخرة الزيارة !

كلمة وجهتها إلى فيفي ليسمعها حبل الغسيل ، فحاد نحوى بعينيه الكسولتين وفيهما نظرة ازدراء . تقلصت شفتاه بشيء يريد أن يقوله ثم عدل ، نظر في ساعته ونهض طويلا نحيلا كالثعبان . في سكون خرج وأغلق الباب وراءه ، وصدر مرمر ما زال والحمد لله يعلو ويهبط

ــ صباعك خلص يا فيفي !

فنزعت إصبعها من بين أسنانها وزغرت لي في صمت . تحت الملاءة البيضاء صدر مرمر يعلو ويهبط ، ما أتعس شخصا ليس له من

الحياة سوى قلب ينبض . نعم هى لقيت مصيرا أسوأ من السجن فلعنة الله على من كان السبب . لعنة الله على أبى شنب وأبى قتب ، وعلى عم سالم يوم خلق فى بطن خالتى ذلك الانتفاخ على بحر يوسف . واللعنة قبل الجميع على أنا ، ما التقيت بمرمر قط إلا وكنت عدوها

ــ اممم !

تزوم حبيبتى تحت الملاءة البيضاء وتحرك رأسها ، نهضت بسرعة أربت على الشعر الأسود المبعثر على الوسادة البيضاء . ببطء فتحت عينيها تتأملنى بنظرة بعيدة غائمة ، ثم أشاحت بوجهها وهى تزوم .

وتحول الزوم إلى أنين ثم إلى تلك الزفرات كالحشرجة ، بسرعة قامت فيفى فنادت الرجل ذا البالطو الأبيض . تحسس نبضها فى صمت وهو ينظر إلى كارها

ــ ممكن والله تسيبوها لوحدها !

ومرمر حادت برأسها نحوى وصوبت إلى تلك النظرة الغائمة ، سرعان ما أنت من جديد . أنا مكروه من الجميع وعدو البشر ، تحاملت على نفسى وخرجت . اللعنة فى الشرفة على صوت الصراصير وعلى كل ضفدعة فى كل حقل من حقول الهرم . واللعنة على الهرم نفسه ومن بناه ومن قصف رأسه ، بين القوسين الفاشلين فى ضوء القمر

ورنين مبكر للتليفون من فيفى

ــ لسه دايخه ، ما نطقتش بحرف . والدكتور أمين بيقول لك ما تروحش المستشفى خالص

ــ وده ليه بقى ؟

ــ أنا عارفة ؟ آهه استنى عليها لما تفوق

فاللعنة على هـذا الصباح الحار وعلى الجهنمية الحمراء وعلى الفراشة البيضاء التى رفرفت على السور . لم أشرب طوال حياتى فى الصباح ، لكننى شربت فى ذلك الصباح ونمت عند الظهيرة بعد أن تقيأت

ــ هيه يا فيفى ؟

ــ برضه زى ما هى

ــ وبرضه ما اجيش ؟

ــ أيوه

فاللعنة عند الغروب على هـذا التل البعيد مثل القتب ، وعلى الشجرتين الذابلتين فيما تبقى من ضوء شمس غربت . ومددت يدا تغلى إلى التليفون وطلبت حبل الغسيل ، رن صوته كالمعتاد مثلجا

ــ زيارتك تفيدها بايه ؟

ــ وح تضرها بايه ؟

ــ منظرك بينرفزها

ــ ولما انت عارف كده سبتها تزورنى وحدها ليه ؟

ــ وما اسيبهاش ليه ؟

ــ موش شايف النتيجة ؟

ــ النتيجة فى مصلحتنا

ــ إسمح لى إنك بتخرف !

فصمت لحظة يستوعب الموقف وبالطبع يتقلص

ــ سيادتك شارب حاجه ؟

ــ لا والله

ــ عيان ؟

ــ ما أظنش

ــ أصلى موش متعود أحتمل قلة الأدب الا من الميانين ! وعن إذنك قدامى حالة غير سيادتك !

فاللعنة على كل حبال الغسيل وعلى ألأنا الذى حيث كانت الهى سوف يكون ! ظلام هى الحياة إلى أن رن صوت فيفى فى فرح :

ــ طابت يا أستاذ حمادة ! طابت !

فدقت بين الضلوع ألف طبلة ودوى ألف نفير

ــ والله العظيم ؟

ــ آه والله ! طابت وافتكرت كمان !

مع الطبلة والنفير رن ألف ناقوس

ــ إفتكرتنى ؟

ــ يا خسارة انت لسه !

ــ إخص !

ــ لكن افتكرت حاجات كتير

ذكرت زوجها وكيف رجمته بالبرطمان ، وكيف كانت وتتذاك فى بيت الأستاذ حمادة بالهرم

ــ شوية شوية تفتكر

ونفس الكلام ردده حبل الغسيل حين رحت أزوره فى العيادة ، ولأول مرة رأيت على شفتيه ما يشبه ابتسامة حقيقية

ــ عشان ما تبقاش تطول لسانك !

فبينما أصافحه لعنت نفسى لأننى لعنته ، تمنيت والله أن أنحنى لأقبل منه بطن الضفدعة . حتى بعد أن قرر إرسال مرمر إلى الإسكندرية حينا من الزمن لتستجم ، شهرا لا ترى فيه وجهى . فى شهور قليلة كدس على الديون ولكنها حلال عليه ، فداء مرمر كل ما يملك الرفاق !

ــ ١٠ ــ

على صوت الصفير علا فى السماء صوت أزيز لترترة لمعت جنب قرص القمر ، سارية تلمع وكل ترترة فى السماء مرمر . مثل الإلكترون حبيبتى ، فى أية لحظة قد تكون فى أى مكان

ــ مرمر !

بعد شهر الاسكندرية وقفت على بابى ذات ليلة تبتسم ، منظرها ألجمنى وبدا عليها السرور لأنه ألجمنى . عيناها واسعتان سليمتان ، ودماء كثيرة مشت فى الوجه الذى كان شاحبا

ــ مساء الخير !

رنة غريبة فى صوتها ومدت يدها لتصافحنى ، سخيف جدا أن أصافح مرمر ولكن شيئا غامضا جعلنى أكتفى بالمصافحة . ودخلت منتصبة القامة وئيدة الخطى ، وقفت تستعرض الصالة باسمة . بعد أن وضعت على البار دوسيها سميكا أزرق كانت تحمله تحت إبطها

ــ إزيك يا حمادة ؟

ببساطة كأنها ما فارقتنى إلا بالأمس ، ورنة معدنية غريبة فى صوتها . بعيون سوداء واسعة تتأملنى باسمة ، رائحة فى ابتسامتها لعسل زمان لكنها ليست رائحة خالصة . فى ابتسامتها أيضا وفى نظرتها شىء جديد معدنى

ــ شكلك زى اللى خايف منى ! ما تخافش خلاص طبت ، ها !

وعادت تستعرض الصالة بالعيون الواسعة السوداء ، بابتسامة فيها مزيج من المرارة والانتصار

— زى ما سبته تمام .. موش كان هنا برضه ؟

— هوه ايه ؟

— محمود !

وأشارت إلىالأرض بجوار الحائط حيث تكدس زوجها ذات ليلة

— إنتى افتكرتى يا مرمر ؟

لكنها لم تجب على سؤالى

— عمل ايه لما فاق ؟ ضربك تانى يا مسكين ؟ !

فلست أدرى لماذا غاظتنى لهجتها ، الحروف الممدودة الساخرة كأنها تخاطب طفلا

— إنتى سبتى فيه حيل للضرب ؟

— عطشانة

— هه ؟

— إسقينا حاجة

وأشارت إلى البار فصببت كأسين بيد مثلجة ، مكتوب على فيما يبدو أن أتعرف على مرمر للمرة الرابعة ..

— موش باين عليك مصدق انى طبت !

على الكنبة جلست والكأس مرتكز على ركبتها تتأملنى ساخرة ، ساق على ساق فى شراب كاروهات ، وحتى فى ساقها شىء معدنى

— أثبت لك ياسيدى !.. إسمى أميرة وأمى نفيسة وأبويا سالم وجوزى محمود جاد الله ابن الشيخ جاد الله خمسة وعشرين شارع خيرى فى المعادى ، ها !

ضحكتها جديدة أيضا ، وتوقفت عن رص معلوماتها لحظة

لترشف من الكأس رشفة

— إتنين وتلاتين جلسة فى تلاتة جنيه ميتين وستاشر ، ما تخافش ح اسددهم لك بس طبعا تقسطهم على !

— مرمر !

— وفيفى لها خمسين يبقوا ميتين ستة وستين ، يعنى من بكرة الشغل على ودنه !

فاغتظت أكثر

— الكلام ده معناه انك لسه شوية !

— ها ! موش كل واحد ياخد فلوسه ؟

وخيم صمت شغلته بالنظر إلى مربع النافذة المظلم ، على صوت الصراصير ونباح كلب بعيد . تنظر إلى النافذة بابتسامة المرارة والنصر ، وفجأة هزت رأسها كأنما تنفض عنها شيئا ونهضت

— بينا فى الطراوة

وهنا فى الشرفة جلست على الكرسى لا على الشلتتين ، ملأت صدرها بشهيق عميق من هواء الحقول ثم أطلقته زفيرا حرا طويلا . ثم حادت ببصرها إلى الشجرتين الحالمتين وابتسمت

— والله سلامات ياست مرمر !

فضايقتنى لهجتها الساخرة من شجرتى لكننى لم أقل شيئا

— لسه برضه بيحبوا بعض ؟

— حمادة أيوه

— ومرمر لأ ؟

— اسأليها

— ها !

وعلى صوت الصفير علا فى السماء صوت أزيز ، رفعت مرمر



رأسها نحو الترترة التى لمعت جنب قرص القمر:

ــ جاية لك يا روحى ، جاية لك !

ثم ركزت بصرها على فى تصميم .

ــ شغل على ودنه ! شوف على ودنه يعنى إيه ؟

وأفرغت الكأس فى جوفها وناولتنى الكوب لأملاه ، عدت فوجدتها قد انتقلت من الكرسى إلى الشلتة واضطجعت تنظر الى السماء بابتسامة حالمة . فجلست بجانبها أتأملها وأحاول أن أستوعب تلك المرأة التى أكاد لا أعرفها

ــ موش ملاحظة حاجة غريبة ؟

ــ إيه ؟

ــ لغاية دلوقت ماجبتيش سيرة اسكندرية . عملتى إيه طول المدة دى هناك ؟

ــ فكرت واتفسحت وأهم من كده طبت . ورسمت صور كتير بس اوعى تقول لى وريها لى ، ها !

ــ كنتى نازلة فين ؟

ــ كوك دور تالت شارع بعد أتينيوس ، بنسيون صغير كده ابقى آخدك فيه مرة !

ــ ما زهقتيش لوحدك ؟

ــ المجنون ما يزهقش أبدا ! ها !

وسرحت فى ذكريات لا يبدو أنها تنوى التعبير عنها . ثم أدارت رأسها نحوى حيث استندت إلى الحائط وابتسمت

ــ موش ملاحظ انت حاجة غريبة ؟

ــ إيه ؟

ــ لغاية دلوقت ما بستنيش !

متحدية لهجتها وساخرة ، ملت لأقبل شفتيها فأدارتهما وأعطتنى خدها

ـ وحشتينى يا مرمر

ـ إن شاالله ما تشوف وحش !

ومددت ذراعى أحطت كتفيها وضممتها ، ضغطت على كتفها البعيد فلم يثب

وفجأة رفعت ذراعيها نحو السماء وتكلمت كأنها تلقى بيت شعر

ـ لفوق .. لفوق .. لفوق !

فضممت جسدها إلى وكان متوترا ، لكنه شيئا فشيئا أخذ يلين . أنزلت مرمر ذراعيها وراحت تتفحصنى كأنما تريد أن تكتشف فى شيئا ، ثم عبست وأطبقت بشفتيها على شفتى . فى قبلتها شىء من عسل زمان تمازجه لذعة جديدة قاسية ، وطوال القبلة لم تغمض عينيها . بالعيون السود تلتهم وجهى بنظرة حادة من الأعماق الغريبة المظلمة

ـ وحشتنى يا حمادة !

بصوت وحشى لم أعهده فيها ، جديد مثل كل شىء فى مرمر الرابعة . وفى الصباح فتحت الشنطة وأخرجت الكتب والورق على فنجان من الشاى الثقيل

ـ على ودنه ! شوف على ودنه يعنى إيه ؟

من الصباح إلى المساء لم تتعب أبدا ، ونظرة قاسية تلسعنى بها كلما تململت

ـ إوعى تتكلم ! لا منك ولا كفاية شرك ؟!

لم تسترخ إلا بالليل ، هنا على الشلتين حيث طغى على صوت الصفير أزيز ترترة لمت

ـ هانت يابنتى ، هانت !

وبسطت ذراعيها كجناحى طائرة وأزت

ـ ز ز ز ز ز !

أحطت بدنها بالذراعين كأننى خفت أن تطير فعلا ، والنكهة اللاذعة مع العسل فى شفتى مرمر الجديدة . وذات ليلة عقدت ذراعيها خلف رأسها وراحت تتأمل الشجرتين الحالمتين

ـ أسألك سؤال وتقول لى بالحق ؟

فتوجست شرا

ـ يا ترى لسه برضه عايز تتجوزنى ؟

فغاظنى سؤالها

ـ إمالْ شارى الدبلتين دولْ عياقة ؟

ـ ها ! ليه ؟

ـ هوه إيه اللى ليه ؟

ـ عايز تتجوزنى ليه ؟

ـ سبحان الله ! الناس كلها بتتجوز ليه ؟

ـ عشانْ تجيب عيال تستخبى ورا الصحارة ، ها !

ـ بايخة !

ـ إنت اللى قايلها

ـ ولو !

ـ أصلى نفسى آخذ لى هدنة .. تعبت قوى م الجواز

ـ إنتى ح تتجوزينى ولا أبو شنب ؟

فسرحت لحظة تفكر

ـ ها ! إلا شنبه وهو طالع لنا م الشباك !

ثم ضربت كفا بكف

— الحاجة اللى مش قادرة افهمها ، عرف منين ليلتها انى عندك !

— شك من كتر خروجك

— لكن أنا باخد دروس

— وهو ايش عرفه ؟ وخلينا فى حكاية جوازنا ..

— والنبى أجل الحكاية دى بعد الامتحان ، خايفة لاسقط بشكل!

وكنت أكره ذلك الامتحان فلم أقل شيئا

— على فكرة مدة الامتحان ح اقعد عند فيفى

— وده ليه ؟

— أهه كده

ونفذت رأيها وغابت عنى أسبوعا ، ثم رن صوتها فى التليفون بفرحة مجنونة

— نجحت ياحمادة ! نجحت !

فلم أدر هل أفرح أم أحزن

— وخدت إكسيلنت كمان !

فتنهدت

— مبروك ياستى

— موش باين عليك فرحان !

— فى الحقيقة موش قوى

— إخص عليك !

— أغشك ؟

ودخلت على بكومة جديدة من الأوراق ، الكورس الذى يجب أن تدرسه كل مضيفة قبل أن تبدأ العمل

— على ودنه ! .. شوف على ودنه يعنى إيه ؟

— مرمر ! موش قلتى لى بعد الامتحان ؟

— إيه هو ؟

— الجواز ؟

— قطع الجواز وسنينه ! خلينا دلوقت فى الشغل

ساعات العمل ما أطولها ، معى بعقلها وليس لى من قلبها شيء

— موش كفاية بقى يا مرمر ؟

— إشتغل وانت ساكت ! لا منك ولا كفاية شرك ؟ ها !

وعند امتحان غابت يومين ثم رن صوتها بذات الفرحة الهوجاء

— نجحت ياحمادة ! نجحت فى الشغل !

فماذا أفعل سوى أن أتنهد من جديد ؟

— مبروك يا مرمر

— ح اطير يا حمادة ! ح اطير !

— ما يطير الا عدوك يا بنتى !

ودخلت على ذات صباح بيونيفورم المضيفات ، وقفت أمامى تدور لتعرض على الجاكيت الكحلى والبرنيطة المضحكة

— بذمتك موش جنان ؟

— من ناحية جنان جنان !

— يارب خليكى يا فيفى ، لولاها كنت سقطت فى الشفوى . وصت على اللجنة تمام !

ووقفت تستعرض صورتها فى المرآة ومن شـدة تأثرها بالمنظر هجمت على المرآة وقبلت نفسها . ثم استدارت وبسطت ذراعيها مثل جناحى طائرة

— ز ز ز ز ز ! ..

— وإمتى ان شاء الله أول طيران ؟

— يوم الخميس الساعة سبعة .. تصور انى ليلة الجمعة ح ابات فى روما ؟

فانزعجت إذ تخيلتها أمام الفاتيكان تقول ها !

— ح تيجى تودعنى طبعا

— أظن كده

— ومبوز كده ليه ؟ إفرح !

وهجمت على تضمنى لتعدينى بفرحتها ، كانت أول مضيفة أقبلها فخيل إلى اننى سائح أجنبى . والهدير الأجوف لدوامة الأصوات الغامضة فى بهو المطار الفسيح ، وقفت مرمر محتقنة الوجه تطوى أصابعها وتبسطها فى قلق

— خايفة ؟

— موت !

— مرمر ! يالله ما فيش وقت !

المحندقة السمراء ذات العيون الخضر ، أقبلت تجرى فى برنيطة أخرى مضحكة

— يالله اتأخرنا !

فمدت مرمر يدها إلى

— باى باى يا حمادة ! موش عاوز حاجة من روما ؟

فنفخت ساخرا

— كياتتى !

وفى عينى مرمر رأيت نظرة حنان ذكرتنى بمرمر الأولى ، ومدت بوزها فطبعت على وجهى قبلة سريعة

— مرسى يا حمادة

— يالله يا مرمر !

— باى باى !

وجذبتها فيفى وانطلقتا تركضان ، دق قلبى مع دقات كعوب الحذاء التى تنقر البلاط ، فراشتان غريبتان تبتعدان فى البهو الفسيح

وعلى أرض المطار وقف طائر خرافى ضخم ، علا هديره فجأة مثل وحش يزوم . يبطء يدور على نفسه ويزحف كالتمساح فى الممر الطويل ، ثم وقف لكى يدور على نفسه من جديد . والتمساح تحول إلى قط كبير يتنمر ، لو أنه هز كالقطط مؤخرته لما دهشت . ثم شرع فى الهجوم مكتسبا فى كل ثانية سرعة أكبر ، وفجأة وثب عن الأرض وثبة جامحة وطار . بأزيز مجنون غاص فى السماء لحظات قليلة وصار نقطة بعيدة عند الأفق

وهنا فى الشرفة وحدى ركبنى شعور أليم بالوحدة ، خاطبت الشجرة الحالمة وأنا أغالب دمعة

— مرمر ! ليه تسيبينى ، ليه ؟

ودامع العين نظرت إلى ترترة لمت جنب قرص القمر ، صارت كل ترترة فى السماء مرمر . فى الصندوق الطائر فى الممر الطويل بين الركاب ، بصينية معدنية وابتسامة مثلها تنحنى هنا وهناك لتطعم الناس وأنا جوعان . خيل إلى أنها طارت ولن تعود ولكنها عادت ، كعاصفة من الفرح الأهوج طرقت بابى بعد ليلتين وفى يدها لفافة كبيرة

— وسع وسع وسع ! وسع شوف امك جايبة لك ايه !

ومن خرفشة الورق طلعت قازة إيطالية مزركشة ، على البار وضعتها مرمر وأمرتنى بأن أجمع من الحديقة صحبة ورد . ثم أخرجت من حقيبتها شيئا صغيرا أخفته وراء ظهرها

— إبتديت تكتب ؟

— تقريبا

— طب خد ، آدى قلم جديد عشان أسلوبك يتحسن ، ها !

وهنا فى الشرفة مزيج من العسل والنكهة اللاذعة ، وقصت على وهى تضحك نكتة إيطالية ماجنة . كالنحلة حطت فى حديقتى ليلتين وطارت إلى باريس ، حاولت أن أتخيلها طول الوقت أمام صورة فى اللوفر

— وسع وسع وسع ! وسع دا انت أملك داعية لك !

جرس لبابى من ألمانيا هو آخر صيحة فى عالم الأجراس ، يضغط الزائر عليه فيعزف له بدلا من الرنين لحنا ، صار كل من يزورونى يدخل عندى بمقدمة موسيقية

— مرمر ! .. الهدنة لسه ما خلصتش ؟

— هوهوه ! لسه بدرى !

كالنحلة حطت فى حديقتى ليلتين وطارت ، الله وحده يعلم أين تطير . والدبل على أى حال لم تخل من الفائدة ، أفلست فى آخر الشهر فبعت إحدى الدبلتين . وذات ليلة عزف الباب وفتحته عن المحندقة السمراء ذات العيون الخضر ، فى يدها لفافة وفى الأخرى خطاب . اللفافة فيها زجاجة شمبانيا والخطاب من مرمر ، تريد منى أن أكرم صديقتها وأن أشرب معها فى صحة الحبيبة نخبا . فجلسنا هنا ساعة نشرب نخب كل ترترة تلمع ، أليست كل ترترة فى السماء مرمر ؟ فوالله يا مرمر ما نسيتك طول الوقت لحظة واحدة ، عن عينيك أنت وعن شفتيك كنت أبحث فى وجه فيفى ، وإن تشابهت كل العيون حين يلمع فيها بين النور والظلال بريق نشوة

— قزازتى خلصت ؟

أول سؤال لها حين عادت ، ورفعت الزجاجة لتفحصها فبدت فى عينيها نظرة ماكرة

— ياه .. دانتم شربتو تمام !

— فى صحتك

— ها !

واعتلت الكرسى الطويل أمام البار ، ساق على ساق فى شراب جمع كل ألوان قوس قزح ، وأخرجت سيجارة رشقتها بين شفتيها وهى ترمقنى بخيلاء

— عندنا ف أوروبا اما واحده ست تطلع سيجارة عشرة يجروا يولعوها !

فأشعلت لها السيجارة وأنا أتصبب

— تعالى شوفى بنتك يا نفيسه ! تعالى اتفرج يابو قتب !

فنفخت الدخان فى وجهى قائلة ها !

— نفسى تشوف الهرم بتاعك ده شكله إيه من فوق

— إشمعنى ؟

— دمل على وش الأرض

— نفسى انتى تشوفى طيارتك دى شكلها إيه من تحت

— إيه ؟

— ترترة فى السما

— طب شوف بقى الفرق بين الدمل والترترة . بينا فى الطراوة ؟

هنا فى الشرفة على الشلتتين ، وأشارت مرمر إلى الشجرتين

— بتسقى مرمر وحمادة ؟

— يوماتى

فرفعت ذراعيها وملأت صدرها بشهيق عميق من هواء الحقول ، ثم طردته زفيرا حرا طويلا

— عمرى ما كنت سعيدة بالشكل ده .. موش تسمعنا حاجه ؟

ـ الأليجرتو ؟
ـ إلا الهباب ده !

فأسمعتها النزوات الإسبانية التى تحبها ، وما أحلى هذه اللذعة الجديدة فى عسل مرمر الرابعة

ـ مرمر ، عايز اعترف لك بحاجة
ـ ههم !
ـ بس ما تزعليش ؟
ـ ما تقول
ـ أنا اتزنقت بعت دبلة

فصمتت حينا وهى تداعب بأصابعها شعرى

ـ إخص عليك !
ـ زعلتى ؟ ..
ـ طبعا زعلت ، ليه تبيع دبلة واحدة بس ؟ ها !

ليلتان من العسل اللاذع وطارت نحلتى بأزيز ، لله وحده يعلم أين تطير . وحدى أشرب الليلة ولكننى غير وحيد ، أليست كل ترترة فى السماء مرمر ؟ جامد قوى موش قادرة افتحه ، وبحثت فى شفتيها عن الجنون الساخن فى اللحم الحرام . الترترة التى كانت قطة وأرنبا وضفدعة على بحر يوسف . عبر السموات تطير نحلتى ، فى الثنايا الغامضة من الفضاء تطارد السدم الهاربة ، على سطح فقاعة الصابون الكبيرة المكهربة . بورك فى كل نحلة ملأت ذات يوم برطمان عسل ، وفى كل ضفدعة تنط وكل صرصار يصفر ، وكل شىء ينبض بالحياة فى ليل الهـرم . وفى حبل الغسيل وفى هاتين الشجرتين الحالمتين فى الضوء الشاحب ، قوسين حيين حول القبر المثلث الكبير

وعلى صوت الصفير علا فى السماء صوت أزيز لترترة لمعت بجنب قرص القمر ، فلماذا لا أرفع الكأس وأشرب نخبها من زجاجتها ، أليست كل ترترة فى السماء مرمر ؟ فى صحتك يا حبيبتى وبورك فيك وززززز ! أصفير الصراصير هذا أم أزيز الترترة ، أم ترانى سمعت الباب يعزف لحنا ؟!





ست بنات إضافيات


بنت ما!

قصيرة مكتنزة بيضاء بتاعة ٣٠ سنة و ٨٠ كيلو ، نست أدرى لماذا لاتنمحى تلك الولية من ذاكرتى بالرغم من مرور عشرين سنة على الأقل . بنظرة فاحصة مستريبة صافحتنى وبيد طرية كبطن الضفدعة قائلة أهلا ، ثم جلست أمامى على الكنبة صامتة . أغلب الظن أن الكرسى الذى جلست عليه أنا كان مصنوعا من الخشب بدليل ما أذكر من أننى كنت أتململ عليه طول الوقت .

— أمينة موش هنا ولا إيه ؟

هكذا سألتها فقالت بإيجاز :

— وصلت مشوار

بصوت مبحوح مع أننى أذكر أننى عرضت عليها سيجارة فقالت أنها لا تدخن .

— وراجعة تانى ؟

— موش ده بيتها ؟

فى عينيها نظرة امتعاض لسبب لا أفهمه ، خفضتها نحو الأرض للتخلص كما شعرت من منظرى . وشعرت برغبة لا مناسبة لها فى أن أتنحنح ، ثم فى أن أسعل سعلة خفيفة ، توطئة لأن أخرج المنديل وأبصق فيه حتى لاتقول عنى أننى رجل جلف يبصق على الأرض فى بيوت الناس . ثم نظرت فى ساعتى فوجدت أنها — على ما أذكر — السابعة والنصف تماما .

— على الله ماتتأخرش

فلم تعلق الولية على قولى بشىء ، مواصلة تطلعها إلى الأرض ، فتابعت نظرتها عسى أن أكتشف هناك شيئا غريبا ، ولكننى لم أر سوى البلاط المربع الأبيض وشىء كالقشة رفيعا بنيا مشرشرا ربما كان ساق صرصار مات وتبعثرت أشلاؤه . ورفعت بصرى نحوها لأرى أنها قد انتهزت فرصة نظرى إلى الأرض لكى تتفرج هى على ، التقت عيوننا مدى لحظة ثم افترقت بسرعة على غير اتفاق .

فتنحنحت من جديد وتململت على الكرسى الصلب ، ووجدت أنه من الضرورى أن أجد شيئا أقوله لها .

— بنت حلال أمينة دى .

فتفكرت فى الأمر حينا ثم تصعبت .

— ياما ناس ولاد حلال .

فتصعبت أنا على سبيل العدوى فيما يبدو ، ورفعت رأسى الى سقف الحجرة فى هيئة تأمل . طنين خافت فى الركن البعيد للسقف ، وجسم صغير أسود لذبابة متشنجة فى بيت عنكبوت . لكن العنكبوت نفسه غير موجود هناك ولا شك أنه سيطرب عندما يعود الى البيت ويجد هذه الوليمة الإلهية فى انتظاره هناك . اللهم إلا إذا مر عنكبوت آخر على البيت وسبقه إلى الغنيمة ، إذا كان من طبع العناكب هذا الداء البشرى الخبيث .

والولية مابرحت تنظر إلى الأرض ، جفونها منتفخة بعض الشىء بما يدل على أنها إما لم تشبع من النوم بالأمس وإما نامت أكثر من اللازم ظهر اليوم . وعلى خديها المكتنزين روج ثقيل وبقعة من روج شفتها السفلى قد ساحت على إحدى فجوات ذقنها المكورة . وفجأة رفعت بصرها نحوى فأسرعت بنزع بصرى الخاص عنها ، وأسرعت بوضع يدى فى جيبى لكى أخرج نوتة أقلب وريقاتها فى اهتمام

مصطنع ، كأننى منهمك ــ وهى لاتدرى ــ فى حل هذه المشكلة الهامة أو تلك .

فسمعتها تتنهد دون أن أراها حيث عكفت على النوتة ، لكننى رأيت فى نظرة سريعة ساقها البيضاء المكتنزة ترفع لتوضع فوق ساقها الأخرى ، مع يد مخضبة بالمانيكير الرخيص تمتد إلى ذيل الفستان لكى تغطى به ركبتها الكروية ، ولكن ليس بالقدر الكافى لمن يلتمس لركبته تغطية شاملة . وكان لزاما على عند ذلك أن أنظر إلى عينيها بوصفهما منفذا إلى روحها ان كان لها روح . فرددت النوتة إلى جيبى . ناظرا إلى عينيها لم أجد سوى نفس النظرة الثقيلة تحت الجفون المنتفخة ، وثمة لمسة واضحة من الكراهية بدأت تمازج معنى الاستهجان الذى كان هناك من البداية . لسبب ما تكرهنى تلك الولية مع أننى لم أرتكب فى حقها أى إساءة ، فكأن مجرد وجودى يزعجها ، وكأن هناك جريمة اسمها جريمة تواجد على قيد الحياة . فينبغى أن أعثر على شيء ظريف أقوله لكى يخفف هذا الجو المتوتر الثقيل

كنا وقتها فى سنوات الحرب فوجدتنى فجأة أتضاحك وأنا أتململ على الكرسى توطئة لأن أقول :

ــ تصورى ان فيه ناس فاكرة ان هتلر مسلم ، ها ها !

وكان مقدرا على أن أختتم تلك الضحكة وحدى ، اذ صوبت السيدة نحوى تلك النظرة الكارهة وقالت فى جفاء :

ــ ما يمكن مسلم فى قلبه . إحنا حاندخل فى قلوب الناس !

فتنحنحت وأنا أقول أى والله ، ونظرت فى ساعتى فوجدت أنها قاربت الثامنة . هذه الولية لايجدى معها الحديث فى السياسة العالمية فهل أحدثها عن الجو ؟

ــ حر قوى الليلة دى .

هكذا قلت وأنا أهوى بيدى على وجهى فلم تزد عن قولها :

ــ آهو زى كل ليلة .

فاذا كان زى كل ليلة فما سبب هذا العرق الذى بدأت أشعر به يتسلل على ظهرى فى خيوط طويلة لزجة ؟ فليتنى أفتح الشيش المغلق للنافذة لتدخل منه نسمة منعشة ، لكننى ذكرت أن منظرنا حيث جلسنا فى تلك الحجرة لن يكون سارا للجيران إذا وجدوا .

صوت راديو قريب يتغنى على لسان عبد الغنى السيد بالبيض الأمارة ، وبما أن هذه الأنثى بيضاء فيظهر أنه بياض بياض . وصوت طفل يصرخ بشدة مع صوت امرأة تقول له علشان تحرم يا ابن الكلب فقلت متأففا :

ــ ماجبش ضرب العيال بالشكل ده .

فزغرت لى كأننى ذلك الطفل الذى عمل شيئا يستحق عليه الضرب .

ــ موش يتربوا ؟

وفجأة سعلت واهتزت على الكنبة بقوة ، ومالت إلى اليمين فبصقت على البلاط غير بعيد من رجل الصرصار ، وأنا الذى أتعبت نفسى باخراج منديل الجنتلمان . والساعة الثامنة وخيوط العرق تتزايد على ظهرى وصدرى وشيء يقول لى أننى يجب أن أقوم .

ــ يظهر ان أمينة ح تتأخر .

فلم تجب ، مشغولة بتجفيف شفتيها بيدها ، ثم بتجفيف يدها فى مفرش الكنبة ، ونهضت أنا بسرعة .

ــ أستأذن أنا ، وابقى آجى مرة ثانية .

ونهضت السيدة فمددت لها يدى غير مرتاح الى الملمس المتوقع للضفدعة المبللة ، لكنها أغنتنى عن التجربة بتجاهلها ليدى وتحركها نحو باب الحجرة لتفتحه . ومن ذلك الباب خرجت أنا بسرعة وعبرت الصالة نحو باب الخروج ففتحته ، توطئة لأن ألتفت نحوها قائلا سلامو عليكم ، وحتى هذه التحية المهذبة رفضت أن ترد عليها . ولست أدرى إذا كان هـذا صحيحا أم أنه من صنع مخيلتى ، صوتها الحاقد الذى ترامى إلى من فرجة الباب قبل أن يقفل ورائى وهو يقول :

ــ غور جتك البلا ف دمك !

فلست أدرى لماذا تعلق بذاكرتى هـذه التجارب الصبيانية السخيفة ، ولعلها علقت بسبب أنها المرة الوحيدة التى شتمت فيها لأنتى مؤدب .



بنت جميلة



نظرت فى عينيها السوداوين فسحرتانى ، وإلى شفتيها الحمراوين ففتنتانى ، وإلى يديها البيضاوين فأعجبتانى ، الأمر الذى أثار فى ذهنى ملاحظة وسؤالا : الملاحظة هى أن صيغة المثنى كريهة جدا ويجب إلغاؤها فورا ، والسؤال هو لماذا تسحرنى وتفتننى وتعجبنى عيناها وشفتاها ويداها ؟ فرأيت أن أطلعها على مايدور فى ذهنى .

ـ كان نفسى يبقى لك تلت عيون وتلت شفايف وتلت إيدين

فتراءت فى عينها نظرة غيظ .

ـ وده عشان إيه بقى ؟

ـ عشان تتخلص من صيغة المثنى .

ـ مثنى ؟

ـ آه .

ـ موش فاهمة حاجة .

فرأيت أن أنتقل إلى الموضوع الآخر

ـ ماتعرفيش ليه عينيكى بتسحرنى ؟

ـ عينيه ؟

ـ آه ، وليه شفايفك بتفتنى وحتى إيديكى بتعجبنى ؟

فابتسمت ورفعت يدها تسوى شعرها ، ثم رفعت ساقا وضعتها على ساق ، ساقاها بدورهما أعجبتانى بالرغم من صيغة المثنى .

ـ ماتعرفيش ليه كل ده ؟

فقالت مازحة لتخفى سرورها :

ـ لازم عينيه وشفايفى وإيديه حلوين .

لكننى كنت أريد أن أتفلسف .

ـ يعنى إيه حلوين .

ـ يعنى حلوين .

ـ لكن حلوين ليه ؟

ـ لأنهم حلوين .

فأدركت أنها لم تفهم قصدى بعد .

ـ لو كنت أنا حمار ، شرحت لها ، كانت عينيكى تسحرنى وشفايفك تفتنى ؟

ـ طبعا لأ .

ـ ليه ؟

ـ لأنك حمار !

فتبين لى أننى أسأت اختيار الحيوان .

ـ بلاش الحمار . لو كنت أسد ـ لا بلاش أسد كمان ـ لو كنت نسر ، لو كنت فيل ، لو كنت سيد قشطة ، لو كنت أى حيوان فى الدنيا كنت حاشوف عينيكى وشفايفك حلوين ؟

ـ غالبا لأ .

ـ ليه ؟

ـ لأن الحيوانات مابتفهمش .

ـ تفتكرى كده ؟

ـ آه

ـ وليه النسر بتعجبه النسرة ، والفيل بتعجبه الفيلة ، والقط

بتعجبه القطة ، وحتى الصرصار بتعجبه الصرصارة ؟

فسكتت لحظةِ تفكر ثم قالت :

ـ كل صنف بيحب بعضه .

ـ وده اللى انا عايز أقوله ، كان لازم اكون راجل عشان أشوفك حلوة .

ـ دى حاجة طبيعية .

ـ والحاجة دى موش مضايقاكى ؟

ـ تضايقنى ليه ؟

ـ لأنى لو كنت صرصار كنت فضلت عليكى صرصارة .

ـ طب وانا مالى ؟

ـ الصرصارة حلوة ؟

ـ طبعا لأ .

ـ ومع ذلك حلوة فى عين الصرصار .

فسكتت السيدة وراحت تزغر لى :

إنت عايز تقول ايه ؟

ـ ولا حاجة ، عايز أعرف ليه باشوفك حلوة ، وليه عينيكى بتسحرنى وشفايفك بتفتنى مع إنها مثنى .

فنظرت فى ساعتها

ـ إنت يظهر فايق . ونهضت .

ـ قمتى ليه ؟

ـ ماشية .

ـ على فين ؟

ـ رايحة للكوافير .

ـ لكن انتى شعرك حلو .

ـ باى باى .

وأولتنى ظهرها وابتعدت .

فلما صارت عند الباب خطر لى سؤال آخر :

ـ تفتكرى الصرصار بيعجبه شعر الصرصارة ؟

لكنها لم تجب ولم تلتفت ، ويخيل إلى أنها خرجت غاضبة فهذا عيب معظم النساء ، انهن لا يملن بالمرة الى الفلسفة .




بنت
و
تفاحة

ألا تعرف علاجا ــ سألتنى نفس السؤال رابع سيدة فى نفس الأسبوع ــ للملل والسأم والزهقان والشعور بالفراغ الشديد الرهيب الأسود القاتل ؟ فقلت لها طبعا أعرف ، فكل مايضايقك ــ أنت وأمثالك ممن سألننى نفس السؤال ــ هو افتقاركن التام إلى عنصر التفاح .

ــ التفاح ؟!

ــ أيوه . لازم تاكلى تفاح . تيجى يوم كده تلبسى وتقولى لجوزك انا نازلة اشترى ...

ــ (مقاطعة) اتنين كيلو تفاح ؟

ــ غلط ، نازلة اشترى جونلة أو بلوزة أو أى حاجة .

ــ وليه ماقولش انى نازله اشترى تفاح ؟

ــ لأنك ياسيدتى إن فعلت فقدت بهجة الموقف كله ، وحولت التفاح من علاج للملل إلى مجرد فاكهة عادية تؤكل بعد الغداء . فلكى يكون للتفاح قيمته العلاجية يجب أن تشتريه سرا ، وأن تضعيه فى ركن خفى من الدولاب ، وهى اللحظة التى يبدأ فيها حياته كعلاج للملل .

ــ ولا انا فاهمة حاجة .

هذا طبيعى لأننى لم أكمل كلامى بعد ، فالتفاح كما تعلمين فاكهة لذيذة يحبها زوجك ، أليس كذلك ؟ ويحبها أولادك أيضا ، أليس كذلك .

ــ كلهم يموتوا فيها .

من هنا تبرز قيمة التفاح كعلاج للملل ، لأنك لن تعطى أيا منهم تفاحة واحدة .

ــ وهم يهونوا على ؟

هــذا شيء متروك لك أنت ، فبإمكانك أن تفتحى الدولاب وتعطيهم التفاح ليأكلوه ، وبعد خمس دقائق لاغير تبدئين حياة الملل من جديد .

ــ برضه موش فاهمة .

هذا لأنك قليلة العقل طبعا ، وإلا ما كنت قصدتنى من البداية لكى أزودك بعلاج الملل ــ أما زلت راغبة فى ذلك العلاج ؟

ــ طبعا .

إذن دعى التفاح فى ذلك الركن الخفى من الدولاب ، ولا تعطيهم منه تفاحة واحدة . كل يوم وهم فى الخــارج ، أو كل ليلة وهم يغطون فى النوم ، تتســللين إلى الدولاب وتفتحينه برفق ، ومن الكيس المخبوء تخرجين تفاحة واحدة لتأكليها وحدك لاشريك لك .

ــ واذا حسوا بى !

هذا هو جمــال اللعبة ، فما بين سيرك على أطراف أصابعك فى الظلام ، وتحســسك باب الدولاب الذى أعـرف إنه يزيق ، ثم إخراج التفاحة من الكيس الذى أعرف أنه يخرفش ، ستشــعرين بأنك فى مغامرة طريفة مثيرة ، تلك المغامرة التى تبلغ ذروتها وأنت تتسللين بالتفاحة إلى الحمام ، حيث تقفين لالتهامها وعينك على الباب مخافة أن يدخل أحدهم فجأة ، ولذلك يستحسن ألا تضعى ترباسا على الباب المذكور .

ــ اشمعنى ؟

لكى تضاعفى من رهبة الموقف ، وبالتـالى تضـاعفى من لذة التفاحة التى تأكلينها قطعة قطعة ، قطعة قطعة وأنت خافقة القلب متلاحقة الأنفاس ، متوقعة أن يدخلوا عليك فى أية لحظة ويسموك حرامية التفاح ! أيمكن أن يتطرق الملل الى نفسك طوال تلك الدقائق المشحونة بالإثارة البالغة ؟

ـ فى الحقيقة موش ممكن .

ها أنت قد بدأت فى الفهم ، فحاولى أن تعودى بذهنك الى الدولاب الذى فيه التفاح . هل له مفتاح ؟

ـ أيوه .

ـ هل من عادتك أن تقفليه بالمفتاح ؟

ـ لأ .

التفاح سيرغمك على أن تقفليه ، وعلى أن تضعى المفتـاح فى جيبك طول النهار والليل ، دقيقة بعد دقيقة وساعة بعـد سـاعة تضعين يدك فى جيبك لكى تتأكدى من أنه موجود هناك وأنك لم تنسيه فى قفل الدولاب .

ـ طب وافرض انى نسيته ؟

سيحدث قطعا أن تضعى يدك فى جيبك ذات مرة فلا تجدينـه هناك ، فتخيلى أى رعب شيطانى سوف يتملكك ! وتخيلى جريك المحموم نحو الدولاب لكى تحضرى المفتاح ، أيمكن لامرأة تجرى بسرعة ستين كيلو أن تعرف معنى الملل ؟

ـ مستحيل !

إذن فتخيلى نفسك قد وصلت الى الدولاب لكى تجدى الولد الصغير راكعا أمام بابه المفتوح توطئة لفحص محتوياته ، ألن تصرخى من شدة الفزع ؟ ألن تطردى الولد وتسارعى بقفل الدولاب وأنت

تلهثين ؟ ألن تعودى بعد ذلك متسللة لكى تعدى التفاح وتتأكدى من أن الولد لم يعبث بمحتوياته ؟ ألن تجلسى ساعة كاملة وأنت تفكرين فى الموضوع وتبحثين مختلف احتمالاته ؟ أيمكن لامرأة تفكر بهذا الشكل أن تتسرب إليها ذرة من الملل ؟

ـ برضه مستحيل !

إذن فلننتقل الى الناحية الأخلاقية من الموضوع .. أنت زوجة محبة لزوجك أليس كذلك ؟ وأم محبة لأولادك أليس كذلك ؟ اذن فتخيلى مدى ألمك وخجلك من نفسك كلما تذكرت كمية التفـاح الموجودة فى الدولاب ، وأنت تبخلين عليهم بذلك التفـاح الذى يدفعون فيه أرواحهم . أيمكن لانسان معذب الضمير بهذه الكيفية أن يعرف طعم الملل ؟

ـ أبدا ... أبدا !

لذلك أقول لك ألا تأكلى أكثر من تفاحة واحدة فى اليوم لـكى تطول مدة وجود التفاح فى الدولاب ، وبالتالى تطول مدة عذاب الضمير ، وبالتالى مدة غياب الملل .

وياحبذا ـ لكى تزيدى النار اشتعالا ـ ان تنادى ولدك الصغير الجميل لكى تقولى له :

ـ نفسك فى التفاح ياتوتو ؟

ـ قوى ياماما !

ـ قوى قوى ياحبيبى ؟

ـ قوى قوى قوى ياما ..

ـ ياخسارة ياحبيبى .. ماعندناش !

وتتخيلين كيلو التفاح الموضوع فى الدولاب فكأن قلبك ينفطر حسرة على الولد ، وتهمين بأن تقومى فتخرجى الكيس وتضعيه

أمامه ، لكنك تذكرين الناحية العلاجية فتحجمين وتجلسين فى معركة خطيرة ملتهبة بين صوت العقل ونداء العاطفة . فهل يمكن للملل أن يجد ثغرة يتسرب منها خلال هذه المعركة المحتدمة ؟

ــ مستحيل !

ولسوف يرغمك الموقف على أن تشرعى فى عملية ذهنية لا أظن أنك تمارسينها كثيرا وهى عملية التفلسف . فسوف تسمعين فى داخل نفسك أصواتا مختلفة تتحاور فيما بينها بالكيفية التالية :

ــ أنت تأكلين التفاح وحدك اذن فأنت مجرمة !

ــ لكنهم يأكلون البرتقال !

ــ التفاح ألذ وأغلى .

ــ ولكنهم لم يأكلوا التفاح منذ شهور !

ــ هذا أدعى لأن يأكلوه الآن !

ــ إنهم لا يعرفون أنه موجود !

ــ ولكنه موجود !

ــ سوف أشترى لهم كمية خاصة بهم !

ــ ولكنك انفردت بهذه الكمية دونهم !

ــ إنه كيلو لاغير !

ــ الكم لاقيمة له فى الجريمة !

ــ ولكننى ..

ــ إخرسى يامجرمة !

فتشعرين بالدموع تتجمع فى عينيك وبالزفرات المكتومة تخنق صدرك ، وتتمنين أن تخبطى رأسك فى ضرفة الدولاب المقفل على التفاح المخبوء . فهل يمكن أن تشعرى فى هذا الموقف العصيب بالملل ؟

ــ مستحيل ! مستحيل !

وتخيلى أن الفأس وقعت فى الرأس وأنهم نجحوا بطريقة ما فى العثور على تفاحك المخبوء .. أى خجل ! أى كسوف ! أى ذلة ! أى دموع ! أى اعتذارات ! أى توسلات ! أى أيام عصيبة محمومة تمر بك وكل من حولك يزغرون لك ! خجل وندم ويأس ودموع ثم تبدأ النظرات تلين حولك ، شيئا فشيئا تلين وتنسى حقدها الأسود ، حتى ينجح الزمن كعادته فى شفاء الجروح فتشرق فى البيت شمس الصفح من جديد . شهر أو قرابة شهر وأنت تعيشين فى هذه الدوامة الرهيبة ، فهل يمكن أن يتسرب اليك فى خلال ذلك شىء من الملل ؟

ــ ده رابع المستحيلات !

أضيفى إلى هذا لذة التفاح التى لا يختلف فيها اثنان ، وأخبرينى ماذا يمنعك من أن تنزلى من فورك الى الفكهانى ؟!

ــ والله فكرة !

وإذا كان كل هذا سيحدث وأنت تأكلين التفاح وحدك ، فتخيلى ماذا يمكن أن يحدث اذا أشركتنى فى تفاحة أو اثنتين !



بنت و ثانية!



فى ذات يوم منذ شهور ، بدأت معها مناقشة هامة عن فاكهة من ألذ الفواكه وهى التفاح ، تلك المناقشة التى كان يمكن أن تثمر عن عدد لا بأس به أبدا من الفوائد الثقافية ، لولا أن قطعها علينا ــ المناقشة ــ دخول مجموعة من الناس الذين لا يميلون إلى المناقشات الثقافية ، حتى ولو كانت ذات طابع غذائى هام ، وحتى لو كان موضوعها هو التفاح نفسه .

كنا نتحدث عن الفاكهة عموما ، إذ مررنا بالموز والرمان والبرتقال والبرقوق وحتى بلح عيشة ، ثم وصلنا إلى التفاح الذى ما كدت أنطق باسمه حتى هتفت جليستى فى فزع لا لزوم له :

ــ تفاح ؟ أعوذ بالله ! تفاح ؟ ياساتر ! تفاح ؟ يامغيث يارب ! اوعى تجيب لى سيرة التفاح !

فظننتها تمزح ، ولكنها أكدت لى انها جادة كل الجد ، وشرحت لى تلك الحقيقة العجيبة ، حقيقة أنها لم تذق طعم التفاح خلال الأعوام العشرين الماضية علما بأنها فى الخامسة والعشرين ، وإنها فى علاقتها بالتفاح لا تكرهه فحسب ، بل ترهبه وتخشاه وتعتقد أنها لو ذاقته لحلت بها متاعب كثيرة أقلها عسر الهضم والغثيان والمغص الذى لا ينفع فيه نيمارول ولا كلوريدين .

ــ بتتكلمى جد ؟ صحيح مابتحبيش التفاح ؟

ــ أرجوك ماتنطقش بالكلمة دى خالص . تفاح ؟ أعوذ بالله ! تفاح ؟ ياساتر يارب ! تفاح ؟ احفظنا يارب !

فأدركت أن الأمر أخطر مما أظن ، وبلغ من عدم تصديقى لما أسمع أننى اشتبهت فى وجود خلاف بيننا على ماهو التفاح ، وأنها ربما كانت تهاجم التفاح هذا الهجوم العنيف وهى تعني فاكهة أخرى غير التفاح الذى أعرفه أنا وأعرف أنه لايلقى من الناس إلا كل ثناء .

سألتها مستوثقا :

ــ انتى بتتكلمى عن التفاح اللى هو تفاح ؟

ــ طبعا .

ــ طيب اوصفيه لى .

فوصفته لى وهى تتقزز ، من حجمه الكروى إلى لونه الأحمر بما لم يترك لى مجالا للشك فى أننا نتكلم عن نفس الفاكهة ، الأمر الذى لم يزدنى بالطبع إلا دهشة .

ــ وعمرك مادقتيه ؟

ــ عمرى .

ــ ولا حتى فى شكل كومبوت ؟

ــ ولا كومبوت .

ــ ولا مربى ؟

ــ ولا مربى .

فأسقط فى يدى ، واختلست النظر إليها فى ريبة من أمرها ، موشكا على أن أشك فى قواها العقلية لولا ما أعرفه عنها من أنها سعيدة ناجحة فى حياتها ، زوجة وأما لطفلين ، ومصدرا للمرح حيثما وجدت ، وذواقة لما تسمع من النكت الرائعة خصوصا التى أقولها أنا .

ــ لازم بقى (قلت لها شارحا) عندك عقدة نفسية . صحيح أنا

ماسمعتش عن عقدة معينة اسمها تفاحزم ، لكن كل شيء ممكن فى علم النفس .

ـ إيه (سألتنى) اللى ح يجيب لى عقدة نفسية من التفاح ؟

ـ يسكن وانتى صغيرة كلتى تفاحة كان والدك مخبيها لنفسه فى الدولاب ، فلهفك قلمين عقدوكى من التفاح كله . ويمكن التفاح مرتبط فى ذهنك بحاجة تانية مزعجة ، زى ـ مثلا ـ مدرس حساب اسمه تفاح افندى . أنا اعرف واحد يكره البطيخ موت لأن كان له مدرس اسمه بطيخ افندى .

فتفكرت فى الأمر وقالت :

ـ ده موش شرط . انا احب الرمان موت مع ان كان عندى مدرس اسمه رمان افندى .

ـ مدرس حساب ؟

ـ لأ ، مدرس تاريخ .

ـ عشان كده ، العقد غالبا ماتجيش الا من مدرسى الحساب .

فهزت كتفها فى استخفاف وقالت :

ـ على كل حال المسألة موش مهمة . انت ليه عايزنى أحب التفاح ؟

ـ لأنه حلو ، فيه سكر وفيتامينات ، وشكله جميل جدا ، وكفاية اننا خرجنا من الجنة بسبب التفاحة اللى زاغت عليها عين ستك حوا . انتى مدينة للتفاح بوجودك فى الحياة .

ـ وحد قالك انى سعيدة بوجودى فى الحياة ؟

ـ طبعا لأ ، تبقى سعيدة ازاى وانتى مابتاكليش تفاح ؟

فأفحمت وسكتت ، ورأيت فى نظرتها الساهمة بريقا يدل على أنها

قد بدأت تقتنع بمنطقى وتحس بغرابة ذلك الموقف الذى تقفه من التفاح .

قالت متهيبة :

ـ يعنى تفتكر لو كلت تفاحة مايجراليش حاجة ؟

ـ طبعا لأ . عمرك سمعتى على حد جرى له حاجة من أكل التفاح ؟

ـ لأ .

ـ خلاص ، كلى تفاح ، قومى بينا نشترى كيلو تفاح وننزل عليه نخلصه . أنا لى طريقة ممتازة فى تقشير التفاح ، تصورى انى ألف بالسكينة على التفاحة وهى صحيحة ، واقشرها قشرة واحدة حلزونية طويلة ؟

ـ موش معقول !

ـ آدى احنا فيها ، والمية تكذب الغطاس !

فلست أدرى لماذا تورد وجهها ، وصار أشبه بتفاحة حمراء .

ـ أنا متأكد (واصلت كلامى) انك لو دقتى تفاحة واحدة ح تفهمى تاريخ البشرية كله ، من حوا ونازل .. ح تحسى بطعم جديد ، وعطر لذيذ ، العطر اللى جذب حوا لشجرة التفاح ، وقعدها تحتها يوم ورا يوم وهى بتفكر فى حياتها الميتة مع آدم ، وتقول له والنبى يا آدم .. عايزة من ده !

فازداد البريق فى عينيها السوداوين اتساعا وعمقا ، مثل دائرة لامعة من الماء تتسع على سطح بحيرة ساكنة ، لحظة قبل أن تغشى عنها تلك السحابة الجديدة الداكنة .

قالت فى خوف :

ـ لكن افرض انى خبيت التفاح ؟

– طبعا ح تحبيه .
– التفاح غالى ، وميزانية جوزى محدودة .
فأدركت ماتعنى وقلت :
– التفاح عمره ماكان من التزامات الزوج بعد انتهاء الخطبة وشهر العسل .
فلم تعلق بقول ، واسترسلت أنا :
– موش مهم مين يجيب التفاح . المهم انك تاكلى تفاح ، وتشبعى تفاح ، قبل ماتلاقى نفسك عجوزة مسكينة ، مافيش فى بقك سنان لتفاح ولا حتى لموز !
وسكتت لأنظر إليها حيث جلست صامتة تفكر ، وأحسست برضى مريح عن نفسى ، إذ وصلت فى اللحظة المناسبة لكى أنقذ تلك السيدة من نفسها ، ولكى أفتح عينيها السوداوين الجميلتين على مدى ما تفقده بسبب هذا الموقف اللاتفاحى الشاذ .
ورأيتها تفتح فمها لتقول شيئا وأنا واثق من انه كان شيئا عاقلا فى صف التفاح ، ولكنها سكتت بسبب ما سلفت الإشارة إليه من دخول الناس الذين لايحبون المناقشات الثقافية .
ومرت الشهور ولم أرها ثانيا ، ولكننى أذكرها دائما كلما جلست آكل تفاحة وحدى بعد أن أدور عليها بالسكين مقشرا إياها قشرة واحدة طويلة ، حلزونية معطرة حمراء .





بصراحة تامة أنا لا تعجبنى نساء هذه الأيام ، ذوقهن ماتعرفش ازاى غريب نوعا ، لاسيما فى تقييم الرجال . تصور مثلا أن منهن من يتعرفن بى ، ثم ينصرفن عنى ، دون أن أترك فيهن أى أثر ، علما بأن بعضهن يتعرفن بى وأنا أرتدى البنطلون الرمادى الجبردين، وعليه القميص البنى المنغبش ؟؟

من هنا نشأت فى ذهنى صورة الفتاة المثالية الكاملة ، تلك الفتاة الذكية الناصحة حسنة الذوق ، التى ما يكاد يقع بصرها على حتى يبدو عليها مالا بد قد بدا على الأميرة النائمة عندما أيقظها الأمير الذى أعتذر عن ذكر اسمه حيث أننى قد نسيته .

دهشة وحيرة وافتتان ، وعدم تصديق أنها ترى ماترى . فما تكاد تسترد هدوءها حتى تمط بوزها الجميل فى تكشيرة عذبة وتقول :

ـ إخص عليك !

القول الذى يدهشنى بالطبع من فتاة مثالية مثلها ، لولا أننى ألحظ المد الواضح فى المقطع الأخير من كلمة « عليك » فأدرك أنها إخص للدلال فحسب .

ـ ليه ياسوسو ؟ إخص عليه ليه ؟

هكذا أسألها فتقول فى غضب :

ـ أولا أنا ما اسميش سوسو .

ـ غريبة قوى .. مع إن شكلك سوسو خالص !

خذ بالك من هذا الرد اللطيف ولاحظ أثره عليها فى الابتسامة التى تغالبها وهى تسترسل :

ـ أنا اسمى ميمى ، وثانيا برده اخص عليك !

ـ ليه بس ياميمى ؟

ـ ليه ؟ لأنك وجدت الجرأة على انك ماتظهرش فى حياتى طول العشرين سنة اللى فاتوا !

فماذا أقول لها سوى :

ـ أنا .. إيه ؟ .. آه .. أيوه ... أنا ...

وهكذا متلعثما متخبطا ، شاعرا بفداحة الجرم الذى ارتكبته فى حق هذه الفتاة البريئة ، عشرون عاما وأنا تارك اياها دون أن أظهر ، حاجة موش لطيفة أبدا ، الى أن أقول عندما أعثر على الكلمات :

ـ والله ياميمى أصلى فى الكام سنة اللى فاتوا دول كنت مشغول شوية ... مقنعة ، هه ؟

ـ طب معلهش .. سامحتك المرة دى .. انت اسمك إيه ؟

ـ محمد .

فما تكاد تسمع هذه الكلمة حتى تلمع عيناها إعجابا وسرورا .

ـ الله .. يا سلام .. اسم مبتكر خالص .. مين سماه لك ياترى ؟

ـ أظن والدتى .

ـ لازم ست مثقفة قوى !

ـ طبعا يا ميمى .. هم سنتين فى الكتاب شوية ؟

فتقول وهى تتنهد :

ـ آه لو تشوف جوزى .. آه طويل . عريض .. ابيض .. شعر أصفر .. عنين زرق لو أقول لك ايرول فلين تقول كدابة

ـ ياحفيظ .. وحش للدرجة دى ؟

ــ وأوحش يا ... انت قلت لى اسمك ايه ؟

ــ محمد .

ــ آه .. محمد .. محمد .. محمد ...

وتتلمظ بالاسم الجميل المبتكر ثم تسترسل :

ــ فين هو وفين انت .. فين عنيه من عنيك .. فين شعره من شعرك .. فين مناخيره من مناخيرك .. انت كنت بتلعب ملاكمة يا محمد ؟

ــ لا أبدا .. ليه ؟

ــ لا مافيش حاجة .

وتقوم فجأة من حيث هى جالسة بجانبى لتدور فى الحجرة كالفراشة وهى تقفز وتصفق (حيث أننى أحب المرح فى فتياتى المثاليات لاسيما لو مزج بشىء من الجنون)

ــ أنا سعيدة .. أنا سعيدة !

هكذا تهتف وهى تدور حولى راقصة ، ثم تتوقف فجأة لتنظر الى نظرة جدية وهى تقول :

ــ ليه الإسراف ده يامحمد ؟

ــ إسراف إيه ؟

ــ تنور النجفة والأباجورة فى وقت واحد ؟

وتمد يدها لتطفىء النجفة ، توطئة لأن تعود لتجلس بجانبى

ــ ميمى ...

ــ ايه ياحمادة !

ــ الأباجورة دى موش برضه إسراف ؟

فتمد يدها لتطفئها ، فتاتى المثالية حسنة الذوق .



بمزيج من الاعجاب والدهشة أتابعها ببصرى ــ أنثى القــرن العشرين ــ وهى تتهادى نحو سيارتها الفاخرة ، سلسلة المفاتيح تتدلى من يدها اليمنى وتصطدم مع كل خطوة ــ فى إيقاع فاتن ــ بجانب فخذها الرشيق الملفوف فى البنطلون الهيلانكا الأسود . فهى لن تفتح الباب الخلفى للسيارة مثلما كانت تفعل أمهــا ، بل هى سوف تفتح الباب الأمامى بثقة ، توطئة لأن تنزلق إلى مكان السائق الذى كان دائما ذكرا .

كالذكر ستضع المفتاح فى الكونتاكت وتدير المارش ، لايرهبها ذلك الهدير الذى ينبعث فجأة من جوف الموتور ، والذى لو سمعته جدتها لصوتت أو صرخت أو على الأقل شهقت قائلة ياندامتى .

وكالذكر سوف تدوس الدبرياج وتعشق الفتيس ، ثم تدوس البنزين وتنطلق فى بساطة ولا كأنها تقود مائة وعشرين حصانا .

فإذا وجدت أمامها أوتوبيسا ضخما فهى لاتخاف ولا تتمهل ، بل تضغط على الكلاكس بحزم وهى تكسر شماله لتسبقه من قبل أن يفسح لها ، لاتهمها بتكلة تلك الزغرة الرهيبة التى يصوبها إليها الأسطى رفاعى سائق الأوتوبيس ، ولا شنبه الخطير الذى يستطيع به ــ إذا شاء ــ أن يعشق الفتيس .

هى لن تخلص إذا اهتمت بكل زغرة أو حتى بكل تعليق بذىء ، سيضيع وقتها فى المهاترات الفارغة وهى التى خرجت لتغزو . على سفلت الكورنيش الساخن تسابق هواء البحر ، وبين الحين والحين

ترفع يدها لكى تسوى خصلة أطارها الهواء المذكور من شعرها . أظافر يدها وردية اللون بمانيكير ماكس فاكتور ، ذلك المانكير الذى تشتريه من ها ــ معذرة أعنى آ ــ تو .

عشرات من الإناث يقدن عشرات من السـيارات ويسرقن بهـا أمامى كالسهام على كورنيش الاسكندرية ، معظمهن قاصدات الى المنتزه والمعمورة . أين أزواجهن لا أدرى ، فربما كانت لهم سيارات أخرى ذهبوا بها الى مشاويرهم الخاصة ، وربما كانوا مازالوا نائمين من تعب الليل ، وربما كانوا قد آثروا البقاء فى البيت لكى يأخذوا بالهم من العيال ويشقروا بين الحين والحين على حلة بامية . كل شىء ممكن أمام هذا الجيل الغريب من النساء السائقات .

واحدة منهن وجدت نفسى وراءها فى الفورد ٥١ ونبيتى كمان ، نروة شعرها الأصفر الطائر أغرتنى بأن أدوس بنزينى الخاص لكى الحق بها وآخذ فكرة عن أمامياتها . فما كدت أفعل حتى فجعت ، إذ كان شعرا مصـبوغا زائفا لحيزبون بنت ستين ، خدعة دنيئة لأمثالى من الذكور السائقين . وذلك بالرغم من أن السيارة فيما أذكر كانت كريزلر ٦٥ ، تلك الحقيقة التى تثير فى النفس هــذا السؤال المحير : كيف أمكن لهذا الوجه العكر أن يجتذب كل هذه الكتلة من العملة الصعبة ؟

وسائقة أخرى سدت الطريق أمامى بمشيتها البطيئة الملتوية ربع سـاعة كاملة ، وأخيرا نجحت فى أن أسـبقها لكى أرى وراء الدركسيون حرمة وزنها مائة كيلو على الأقل ، ووجههـا منتفخ كبالون أحمر ، وبنضارة كمان . فزغرت لها وزغرت لى ، ولعنت أبا الزمن الذى نقل هذه الكتلة من مكانها الطبيعى وراء الطبلية حيث تخرط الملوخية ، خاصة وأنها كانت تمسك الدركسيون من

الناحيتين وتحركه بنفس الطريقة التى تحرك بها المخرطة .

لكن هذين النموذجين ليسا بحمد الله إلا نوعا من النشاز فى اللحن العام الذى تعزفه سائر السائقات فى سيمفونية الاسكندرية ، فمعظمهن شابات وفاتنات ، آخر جمال وآخر هيلانكا وآخر شياكة من عند ها ـ أعنى آ ـ نو .

وجدتنى ذات صباح أشرف من نافذة الفورد اليسرى على أنثى من هـذا النوع حيث جلست بجانبى ـ عند الإشـارة ـ أمام دركسيون سيارتها الخاصة . أقول « أشرف » لأن سيارتها كانت واطئة بشكل لافت للنظر ، وان كنت أشك أن لفت النظر كان هو الهدف الوحيد الذى داعب خيال المهندس صاحب تصميمها . فهو فى الغالب قد صممها بهذا الشكل ـ واطئة عريضة زرقاء ـ لكى تسير بسرعة مائة ميل دون أن تنقلب فى الملفات ، جاجوار رياضية لزوم الأنثى العصرية التى وراها شغل . وهذه الأنثى بالذات كان وراها فيما يبدو شغل جد خطير ، بدليل قدمها القلقة على مفتاح البنزين وهى تنتظر فتح الاشارة . قدم صغيرة لطيفة فى حذاء من جلد تمساح ميت ، منه ينبثق شراب كاروهات بنى لامع ، فى نعومة ينساب مع استدارة الساق توطئة لأن يتسلل الى جوف الجونلة النبيتى التى تشير إلى أن المكان الطبيعى لهذه الأنثى هو سيارتى أنا . والجونلة إذا شئت أن تعلم ـ فى حدود معلوماتى الكسائية ـ من قماش فى أغلب الظن ترجال ، تعلوها بلوزة كنت أظن قبـل أن أراها أن قميصى أبيض . على شفتيها ووجنتيها أثر واضح من ماكس فاكتور واليزابيث آردن ، وكذلك فوق جفنيها ، دعك من النفحة السماوية التى دفعها هواء البحر الى أنفى ـ مشكورا ـ من نفحات ديور .

قدمها قلقة على البنزين ويدها قلقة على الدركسيون ، ورفعت يدها الأخرى إلى فمها وشرعت تعض إبهامها . متوترة مسكينة وفى إصبعها دبلة تقول أنها متزوجة ، الأمر الذى يدل على أن قيـادة السيارات ـ حتى الجاجوار منها ـ لم يصل بالأنثى الى الدرجة الكافية من التكيف العاطفى مع حياتها . أنا مثلا ـ وأنا أقود هذه الفورد الكهنة ـ لماذا لا أعض أصـابعى ؟ ولماذا لا أتعجل فتح الاشارة بل على العكس من ذلك أتمنى أن تظل نصف ساعة حمراء ؟

ويبدو أنها شعرت بنظرتى فالتفتت نحوى ورأتنى ، قابلت منى نظرة هادئة متكيفة مع الحياة ، تلك النظرة التى شفعتها بالابتسامة التى اعتقدت أنها تناسب الموقف ، ابتسامة تشجيعية لا أقصد بها شيئا سوى رد الطمأنينة الى تلك النفس الحريمى المتوترة . لكنها لم تفهمها على هذا الأساس بدليل النظرة اياها التى من فوق لتحت ، قبل أن تشيح بوجهها وتواصل عض إصبعها ، مع استخدام يدها الأخرى فى شد ذيل الفستان على ركبتها . فهى كما ترى تعانى شعورا شديدا بالذنب ، وعن طريق الإسقاط تريد أن تلبسنى أنا تهمة البحلقة الى ساقها مع أننى كنت أنظر الى وجهها ، ومع أننى حتى عندما نظرت قبل ذلك الى ساقها لم أكن أهدف الى شىء سوى أن أستوثق من أنه من ها ـ آ ـ نو .

فما كادت الاشارة تخضر حتى تموجت الركبتان فى إيقاع سريع وجميل ، واذا بالجاجوار التى كانت بجانبى نقطة فى آخر الطريق . فالجاجوار ان كنت لاتعلم اسـم لنوع من الفهـود ذات السرعة الفائقة وهذا هو سبب اطلاقه على هذه السيارة السريعة . فبينما أنا أرقبها من بعيد تساءلت هل مازالت تعض إصـبعها ، ولماذا ؟ زوجها على البلاج تريد أن تلحق به أو فى البيت تريد أن تهرب منه ؟

أم تراها مدام بوفارى من طراز عصرى،ثمة شاب ينتظرها فى إحدى كبائن المنتزه وأمامه جردل ساقع يحتوى على زجاجة تنتظر وصول الجاجوار العطشى ؟

فإذا صح هذا فلاشك أن الزجاجة ستكون عند وصول السيدة كتلة من الثلج ، بدليل أننى ما لبثت أن لحقت بها عند أحد منعطفات الكورنيش محبوسة من جديد وراء الأسطى رفاعى . السيدة تضرب الكلاكس بشدة ، ولكن ماذا يفعل الأسطى رفاعى وهو بدوره محبوس وراء لورى ضخم من بتوع المجارى ؟ فالاسكندرية فى أغسطس كما تعلم تغص بالناس الذين يأكلون ويشربون أكثر مما ينبغى ، ولا يقنعون مثل هذه السيدة بعضعضة الأصابع .

كان الكلاكس القلق المتلهف أشبه بمن يقول :

ــ اطلع يا إنت ! امشى يابايخ ! وسع يارزل !

لكن الأسطى رفاعى لم يأخذ فيما يبدو بهذا التفسير ، بل فهم أشياء أخرى رآها تتناقض تناقضا جذريا مع كرامة شنبه . فلذلك أطلت من نافذة الأتوبيس فردة من ذلك الشنب ، توطئة لأن يفتح الباب وينزل الى الطريق صاحب الشنب ذات نفسه ، متجها الى الجاجوار الواطئة الزرقاء والشرر يتطاير من عينيه . وبجانب الجاجوار وقف كالعملاق يشوح بأطرافه المختلفة ويردح :

ــ أروح لك فى أنهى داهية ؟ أشيل لك اللى قدامى ؟ أطلع لك على الرصيف ؟ أنزل لك فى البحر ؟ أطير لك فى السما ؟ ياناس خلو عندكو نظر ؟ ولا خلاص يعنى كل من اشترت لها عربية يبقى الشارع شارع أبوها ؟!

وكان كلاكس السيدة قد سكت بالطبع إزاء هذه الثورة ، وكذلك سكتت السيدة وهى تصعر للرجل خدا متجاهلا يقول له

أنها فوق كل هذه المهاترات الأيديولوجية . فكان من الممكن أن يواصل الرجل إلقاء المحاضرة لولا أن تحرك لورى المجارى وتعالت الكلاكسات تقول له أن الوقت ليس وقت هذا الحوار الفكرى بينه وبين السيدة . فانصرف الى أتوبيسه وهو يقول كلاما لم أميز منه إلا الجانب الخاص بالمسخرة التى صارت الطابع العام لشارع الكورنيش ، وبميله الى الظن بأن القيامة ستقوم فى موعد أقصاه ديسمبر ١٩٦٧ . فما كاد يقفل الباب عليه حتى ارتفع كلاكس السيدة مطالبا بإفساح الطريق ، ومن النافذة شوح ذراع الأسطى رفاعى قائلا لها مامعناه فوتى جتك البلا .

فمرقت السيدة بجانبه كالسهم ، وحاولت أنا أن أمرق ولكنك تعرف الفرق بين الجاجوار والفورد حتى ولو كانت نبيتى . فاكتفيت من الحكاية بالخيال ، تقمصت مدى لحظة شخصية ذلك الرجل الجالس أمام الجردل الساقع ، عبر عنق الزجاجة المائل ينظر الى البحر الأزرق العريض حول المنتزة . فلو اننى كنت مكانه لركبت على البيك آب هذه المنيويت أو تلك ، وترقصت وحدى من نشوة توقعى للجاجوار الزرقاء .

نعم ياسيدى ، بمزيج من الإعجاب والدهشة أتابع ببصرى أنثى العصر وهى تتجه الى سيارتها الفاخرة ، لكننى أشعر أن هذا الهجوم الحريمى على قيادة السيارات لايمكن أن يكون إلا نذيرا بتطور شامل فى نظام المجتمع. فلن يدهشنى إذا رأيت البشرية بعد ٥٠٠ سنة من قيادة النساء للسيارات ــ ترتد الى ذلك النظام الأموى القديم ، الذى فيه يكتفى بانتساب الطفل الى أمه ويسمى ــ عندما يكبر ــ ابراهيم أفندى فاطمة . وهذا شىء لايخيفنى ما دام يسرى على الجميع ، وإنما أخشى أن يقترن هذا التطور

الاجتماعى بتطور بيولوجى مقابل يلحق بأنثى البشر ، وأن أطل عليها ذات يوم فى الجاجوار الزرقاء فأجد انه قد نبت لها شنب كالأسطى رفاعى ! فمثل هـذا المنظر لن يطربنى ، مهما كانت قد تحايلت على طلاء هذا الشنب وتعطيره بأحدث مستوردات ها . أعنى آ ــ نو . وان كان من المحتمل أن يطرب الجردل ــ معذرة أعنى الشاب ــ الجالس أمام الجردل فى كابين المنتزه ، فقل معى أوه لا لا .

